

﴿فتنة﴾ محنة في الدنيا ﴿أو يصيبهم عذاب اليم﴾ في الآخرة وعن ابن عباس رضي الله عنهما فتنة قتل وعن عطاء لازل وأهوال عن جعفر بن محمد يسلم عليهم سلطان جائر.

أَلَا إِنَّكَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ وَيَوْمَ رَاجِعُونَ وَإِنَّهُ يَفْتِكُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٤﴾.

أدخل قد ليؤكد علمه بما هم عليه من المخالفة عن الدين والنفاق ومرجع تأكيد العلم إلى تأكيد الوعيد، وذلك أن قد إذا دخلت على المضارع كانت بمعنى ربما، فوافقت ربما في خروجها إلى معنى التأكيد في نحو قوله:

فإن تمش مهجور الفناء فربما أقام به بعد السوفود وفود ونحوه قول زهير:

أخي ثقة لا تهلك الحمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله

والمعنى: أن جميع ما في السموات والأرض مختصة به خلقاً وملكاً وعلماً، فكيف يخفى عليه أحوال المنافقين وإن كانوا يجتهدون سترها عن العيون وإخفائها، وسينبئهم يوم القيامة بما أبطنوا من سوء أعمالهم وسيجازيهم حق جزائهم والخطاب والغيبة، في قوله: ﴿قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه﴾ يجوز أن يكونا جميعاً للمنافقين على طريق الالتفات، ويجوز أن يكون ما أنتم عليه عاماً ويرجعون للمنافقين والله أعلم عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة النور أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقي^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الفرقان مكية

بَيِّنَاتٍ لِّلَّذِينَ نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾.

البركة كثرة الخير وزيادته ومنها تبارك الله وفيه معنيان تزايد خيره وتكاثر أو تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله، والفرقان مصدر فرق بين الشيئين إذا فصل بينهما وسمي به القرآن لفصله بين الحق والباطل أو لأنه لم ينزل جملة واحدة ولكن مفروقاً مفصلاً بين بعضه وبعض في الإنزال ألا ترى إلى قوله وقرأنا فرقناه^(٢) لتقراه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً وقد جاء الفرق بمعناه قال: ومشركي كافر بالفرق، وعن ابن الزبير رضي الله عنه على عباده وهم رسول الله ﷺ وأمته كما قال: لقد أنزلنا إليكم قولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا،

تسامح في حلف، وغير ذلك أو الأمر الذي يعم بضربه أو بنفعه، وقرئ أمر جميع وفي قوله: إذا كانوا معه على أمر جامع أنه خطب جليل لا بد لرسول الله ﷺ فيه من نوي رأي وقوة يظهره عليه ويعاونونه ويستضيء بأرائهم ومعارفهم وتجاربهم في كفايته، فمفارقة أحدهم في مثل تلك الحال مما يشق على قلبه ويشعث عليه رايه فمن غلظ عليهم وضيق عليهم الأمر في الاستئذان مع العذر المبسوط الحاجة إليه واعتراض ما بهمهم ويعنيهم وذلك قوله: ﴿لبعض شأنهم﴾، وذكر الاستغفار للمستأذنين دليل على أن الأحسن الأفضل أن لا يحنثوا أنفسهم بالذهاب ولا يستأذنوا فيه وقيل: نزلت في حفر الخندق وكان قوم يتسللون بغير إذن وقالوا: كذلك ينبغي أن يكون الناس مع أئمتهم ومقدميهم في الدين والعلم يظهرهم ولا يخلونهم في نازلة من النوازل، ولا يفرقون عنهم والأمر في الإذن مفوض إلى الإمام إن شاء الله وإن شاء لم يأذن على حسب ما اقتضاه رايه.

لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَكُمْ لَوْ كَادَّا فَلَيَحْذَرُوا الَّذِينَ يَحْمِلُونَ عَنْ أَسْرِهِمْ إِنَّهُمْ لَخَبِيرَةٌ بَيْنَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧﴾.

إذا احتاج رسول الله ﷺ إلى اجتماعكم عنده لأمر فدعاكم، فلا تفرقوا عنه إلا بإذنه ولا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضاً، ورجوعكم عن المجمع بغير إذن الداعي أو لا تجعلوا تسميته ونداءه بينكم كما يسمى بعضكم بعضاً ويناديه باسمه الذي سماه به أبواه ولا تقولوا: يا محمد ولكن يا نبي الله ويا رسول الله مع التوقير والتعظيم والصوت المخفوض، والتواضع ويحتمل لا تجعلوا دعاء الرسول ربه مثل ما يدعو صغيركم كبيركم، وفقيركم غنيكم يسأله حاجة فربما أجابه وربما رده قال: دعوات رسول الله ﷺ مسموعة مستجابة ﴿يتسللون﴾ ينسلون قليلاً قليلاً ونظير تسلل تدرج وتخل، واللواذ الملاوذة وهو أن يلوذ هذا بذاك وذلك بهذا يعني: ينسلون عن الجماعة في الخفية على سبيل الملاوذة واستتار بعضهم ببعض ﴿لواذا﴾ حال أي: ملاوذين وقيل: كان بعضهم يلوذ بالرجل إذا استأذن فيأذن له فينطلق الذي لم يؤذن له معه، وقرئ: ﴿لواذا﴾ بالفتح، يقال: خالفه إلى الأمر إذا ذهب إليه دونه ومنه قوله تعالى: وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه، وخالفه عن الأمر إذا صدعته دونه ومعنى ﴿الذين يخالفون عن أمره﴾ الذين يصنون عن أمره دون المؤمنين وهم المناوون، فحذف المفعول لأن الغرض نكر المخالف والمخالف عنه، الضمير في أمره لله سبحانه أو للرسول ﷺ والمعنى: عن طاعته ودينه

(١) ذكره الثعلبي وابن مردويه، والواحدي، زيلعي 453/2.

= كذلك أي: أنزلناه مفروقاً، كذلك لنثبت به فؤادك، فيكون وصفه بالفرقان في أول السورة، والله أعلم، كالمقمة والتوطئة لما يأتي بعد.

(2) قال أحمد: والأظهر مهنا هو المعنى الثاني: لأن في أثناء السورة بعد آيات، وقالوا: لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة، قال الله تعالى=

والضمير في ﴿يَكُونُ﴾ لعبده أو للفرقان ويعضد رجوعه إلى الفرقان قراءة ابن الزبير ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ للجن والإنس ﴿نَذِيرًا﴾ منذرًا أي: مخوفًا أو إنذارًا كالنكير بمعنى: الإنكار ومنه قوله تعالى: ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾⁽¹⁾.

أَلَيْسَ لِمَنْ مَلَكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢٧﴾.

﴿الذي له﴾ رفع على الإبدال من الذي نزل أو رفع على المدح أو نصب عليه.

فإن قلْت: كيف جاز الفصل بين البذل والمبدل منه؟ قلت: ما فصل بينهما بشيء لأن المبدل منه صلته نزل، وليكون تعليل له فكان المبدل منه لم يتم إلا به.

فإن قلْت: في الخلق معنى التقدير فما معنى قوله: ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾ كأنه قال: وقدر كل شيء فقدره! قلت: المعنى: أنه أحدث كل شيء إحداثاً مراعى فيه التقدير والتسوية، فقدره وهياه لما يصلح له مثاله أنه خلق الإنسان على هذا الشكل المقدر المسوى الذي تراه فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به في بابي الدين والدنيا وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجبلة المستوية المقدرة بأمثلة الحكمة والتبدير فقدره لأمر ما، ومصالحة مطابقة لما قدر له غير متجاف عنه أو سمى إحداث الله خلقاً لأنه لا يحدث شيئاً لحكمته إلا على وجه التقدير من غير تفاوت فإذا قيل: خلق الله كذا فهو بمنزلة قوله: أحدث وأوجد من غير نظر إلى وجه الاشتقاق، فكانه قيل: ووجد كل شيء فقدره في إيجاده لم يوجد متفاوتاً وقيل: نجعل له غايةً ومنتهى ومعناه فقدره للبقاء إلى أمد معلوم.

وَأَنذَرُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنفُسِهِمْ سِرًّا وَلَا أُنثَىٰ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا شُرُوكَ ﴿٢٨﴾.

الخلق بمعنى الافتعال كما في قوله تعالى: ﴿إنما تعبدون من دون الله آوثانًا وتخلقون إفكاً﴾⁽²⁾ والمعنى: أنهم أثروا على عبادة الله سبحانه عبادة آلهة لا عجز أبين من عجزهم لا يقدرون على شيء من أفعال الله ولا من أفعال العباد حيث لا يفتعلون شيئاً وهم يفتعلون لأن عبدهم يصنعونهم بالنحت والتصوير ﴿ولا يملكون﴾ أي: لا يستطيعون لأنفسهم دفع ضرر عنها أو جلب نفع إليها وهم يستطيعون، وإذا عجزوا عن الافتعال ودفع الضرر وجلب النفع التي يقدر عليها العباد كانوا عن الموت والحياة والنشور التي لا يقدر عليها إلا الله أعجز.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِذَا فُتِنُوا فَرَقَهُمْ وَإِنَّا إِفْكٌ عَلَيْهِمْ وَقَرُّهُم بِأَنفُسِهِمْ سَوَءٌ مِمَّا قُرْءَانُكَ وَرَأَىٰ عَنِ الْعَيْنِ ﴿٢٩﴾.

وَقَالُوا أَأُتِىَ السُّبُّرُ الْأَوَّلِينَ أَمِ اتَّخَذَتْهَا فِئَةٌ مِّنْهُمْ بَكْرَةً وَأَوَّلِيًّا ﴿٣٠﴾.

﴿أساطير الأولين﴾ ما سطره المتقدمون من نحو أحاديث رستم واسفنديار جمع أسطار، أو أسطورة كاحوثة ﴿اكتتبها﴾ كتبها لنفسه وأخذها كما تقول: استكتب الماء واضطبه إذا سكبها وصبه لنفسه وأخذه، وقرئ اكتبها على البناء للمفعول والمعنى: اكتبها كاتب له لأنه كان أمياً لا يكتب بيده وذلك من تمام إعجازه، ثم حذفت اللام فافضى الفعل إلى الضمير فصار اكتبها إياه كاتب كقوله: واختار موسى قومه، ثم بنى الفعل للضمير الذي هو إياه فانقلب مرفوعاً مستتراً بعد أن كان بارزاً منصوباً، وبقي ضمير الأساطير على حاله فصار اكتبها كما ترى.

فإن قلْت: كيف قيل: اكتبها ﴿فهي تملئ عليه﴾، وإنما يقال: أملت عليه فهو يكتبها! قلت: فيه وجهان أحدهما أراد اكتبها، أو طلبه فهي تملئ عليه أو كتبت له وهو أمي فهي تملئ عليه أي: تلقي عليه من كتابه يتحفظها لأن صورة الإلقاء على الحافظ كصورة الإلقاء على الكاتب، وعن الحسن أنه قول الله سبحانه: يكذبهم وإنما يستقيم أن لو فتحت الهمزة للاستفهام الذي في معنى الإنكار ووجهه أن يكون نحو قوله:

أفسر أن أرا الكرام وأن أورت نوداً شمساً نبلاً
وحق الحسن أن يقف على الأولين ﴿بكراً وأصيلاً﴾.

قُلْ أَتَزَكَّىٰ أَعَمُّ أَلَمٌ أَلَيْسَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٣١﴾.

أي: دائماً أو في الخفية قبل أن ينتشر الناس، وحين يأتون إلى مساكنهم أي: يعلم كل سر خفي في السموات والأرض ومن جملة ما تسرونه أنتم من الكيد لرسوله ﷺ مع علمكم أن ما تقولونه باطل وزور، وكذلك باطن أمر رسول الله ﷺ، وبرأته مما تبهتونه به وهو يجازيكم ويجازيه على ما علم منكم وعلم منه.

فإن قلْت: كيف طابق قوله: ﴿إنه كان غفوراً رحيماً﴾ هذا المعنى؟ قلت: لما كان ما تقدمه في معنى: الوعيد عقبه

(2) سورة العنكبوت، الآية: 17.

(1) سورة القمر، الآيات: 16، 18، 21، 30.

﴿ضربوا لك الأمثال﴾ أي: قالوا: فيك تلك الأقوال واخترعوا لك تلك الصفات والأحوال النادرة من نبوة مشتركة بين إنسان وملك وإلقاء كنز عليك من السماء، وغير ذلك، فبقوا متحيرين ضلالاً لا يجدون قولاً يستقرون عليه أو يفضلوا عن الحق فلا يجدون طريقاً إليه.

تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَجَعَلَ لَكَ قُصُورًا (١٧).

تكاثر خير ﴿الذي إن شاء﴾ وهب لك في الدنيا ﴿خيرًا﴾ مما قالوا: وهو أن يجعل لك مثل ما عندك في الآخرة من الجنات والقصور، وقرئ ويجعل بالرفع عطفاً على جعل لأنَّ الشرط إذا وقع ماضياً جاز في جزائه الجزم والرفع كقوله:

وإن أتاه خليل يوم مسئلة يقول: لا غائب مالي ولا حرم ويجوز في ويجعل لك إذا ادغمت أن تكون اللام في تقدير الجزم والرفع جميعاً، وقرئ بالنصب على أنه جواب الشرط بالواو.

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سِيراً (١٨).

﴿بل كذبوا﴾ عطف على ما حكى عنهم يقول: بل أتوا بأعجب من ذلك كله وهو تكذيبهم بالساعة ويجوز أن يتصل بما يليه كأنه قال: بل كذبوا بالساعة فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب، وكيف يصدقون بتعجيل مثل ما عندك في الآخرة وهم لا يؤمنون بالآخرة، السعير النار الشديدة الاستعارة وعن الحسن رضي الله عنه أنه اسم من أسماء جهنم.

إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ يَبْعِدُ سَمِعُوا مَا نَقَطُوا وَزَفَرُوا (١٩).

﴿رأتهم﴾ من قولهم: نورههم تقرأ: أي: وتتناظر ومن قوله ﷺ: لا ترا أي: نارهما كان بعضها يرى بعضاً^(١) على سبيل المجاز^(٢)، والمعنى: إذا كانت منهم بمرأى الناظر في البعد سمعوا صوت غليانها وشبه ذلك بصوت المتغيظ والزافر، ويجوز أن يراد إذا رأتهم زبانتها تغيظوا وزفروا غضباً على الكفار، وشهوة للانتقام منهم الكرب مع الضيق كما أن الروح مع السعة ولذلك وصف الله الجنة بأن عرضها السموات والأرض، وجاء في الأحاديث أن لكل مؤمن من القصور والجنان كذا وكذا.

وَإِذَا أُنْفِرُوا مِنْهَا مَكَانًا مَقَرًّا مَقَرَّيْنِ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا (٢٠) لَا دَعْوًا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا وَادْعَا ثُبُورًا كَثِيرًا (٢١).

ولقد جمع الله على أهل النار أنواع التضيق والإرهاق،

بما يدل على القدرة عليه لأنه لا يوصف بالمغفرة والرحمة إلا القادر على العقوبة، أو هو تنبيه على أنهم استوجبوا بمكابرتهم هذه أن يصب عليهم العذاب صباً، ولكن صرف ذلك عنهم إنه غفور رحيم يمهل ولا يعاجل.

وَالْوَالِدَا لِلَّذِينَ آمَنُوا بِحُسْنٍ الْكُلِّ وَالْأَسْرَافُ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُودُ مَعَهُمْ نَذِيرًا (٢٢).

وقعت اللام في المصحف مفصلة عن هذا خارجة عن أوضاع الخط العربي، وخط المصحف سنة لا تغير وفي هذا استهانة وتصغير لشأنه، وتسميته بالرسول سخريه منهم، وظن كانهم قالوا: ما لهذا الزاعم أنه رسول، ونحوه قول: فرعون إنَّ رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون أي: إنَّ صحَّ أنه رسول الله، فما باله حاله مثل حالنا ﴿يأكل الطعام﴾ كما نأكل ويتردد في الأسواق لطلب المعاش كما نتردد يعنون أنه كان يجب أن يكون ملكاً مستغنياً عن الأكل والتعيش؛ ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون ملكاً إلى اقتراح أن يكون إنساناً معه ملك حتى يتساندا في الإنذار والتخويف.

أَوْ يُلَاقُوا إِلَيْهِ كَفْراً أَوْ تَكُونُ لَهُمْ جَنَّةٌ بِأَكْلِهِمْ وَكَانَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْخُورًا (٢٣).

ثم نزلوا أيضاً فقالوا: وإن لم يكن مرفوداً بملك فليكن مرفوداً بكنز يلقي إليه من السماء يستظهر به ولا يحتاج إلى تحصيل المعاش، ثم نزلوا فافتنعوا بأن يكون رجلاً له بستان يأكل منه ويرتق كما الدهاقين والمياسير أو ياكلون هم من ذلك البستان، فينتفعون به في بنياهم ومعاشهم، وأراد بالظالمين إياهم بأعيانهم وضع الظاهر موضع المضمهر ليسجل عليهم بالظلم فيما قالوا: وقرئ فيكون بالرفع أو يكون له جنة بالياء وتاكل بالنون.

فَإِنْ قُلْتَ: ما وجها للرفع والنصب في فيكون؟ قُلْتَ: النصب لأنه جواب لولا بمعنى: هلا وحكمه حكم الاستفهام والرفع على أنه معطوف على أنزل ومحلّه الرفع ألا تراك تقول لولا ينزل بالرفع، وقد عطف عليه يلقي وتكون مرفوعين ولا يجوز النصب فيهما لأنهما في حكم الواقع بعد لولا ولا يكون إلا مرفوعاً، والقائلون هم كفار قريش: النضر بن الحرث وعبد الله بن أبي أمية ونوفل بن خويلد ومن ضامهم ﴿مسحوراً﴾ سحر فقلب على عقله أو ذا سحر وهو الرثة عونا أنه بشر لا ملك.

أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَظْهِرُونَ سَبِيلًا (٢٤).

(١) تقدم في المائدة، الحديث: 457.

(٢) قال أحمد: لا حاجة إلى حمله على المجاز، فإن رؤية جهنم جائزة، وقدرة الله تعالى صالحة، وقد تضافرت الظواهر على وقوع هذا الجائز، وعلى أن الله تعالى يخلق لها إدراكاً حسياً وعقلياً، ألا ترى إلى قوله: ﴿سمعوا لها تغيظاً﴾ وإلى محاجتها مع الجنة، وإلى

قولها: هل من مزيد، وإلى اشتكاها إلى ربها، فأنان لها في نفسين إلى غير ذلك من الظواهر التي لا سبيل إلى تأويلها إذ لا محوج إليه، ولو فتح باب التأويل والمجاز في أحوال المعاد لتطوح الذي يسلك ذلك إلى وادي الضلالة والتحيز إلى فرق الفلاسفة، فالحق أنا متعبدون بالظاهر ما لم يمنع مانع والله أعلم.

يَعَاذِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿٧﴾.

يحشرهم فيقول: كلاهما بالنون والياء، وقرئ يحشرهم بكسر الشين ﴿وما يعبدون﴾ يريد المعبودين من الملائكة والمسيح وعزير، وعن الكلبي الأصنام ينطقها الله، ويجوز أن يكون عامًا لهم جميعًا.

فإن قلت: كيف صح استعمال ما في العقلاء؟ قلت: هو موضوع على العموم للعقلاء وغيرهم بلبيل قولك: إذا رأيت شبحًا من بعيد ما هو فإذا قيل: لك إنسان قلت: حينئذٍ من هو ويدلك قولهم: من لما يعقل أو أريد به الوصف كأنه قيل: ومعبودهم ألا تراك تقول: إذا أريت السؤال عن صفة زيد ما زيد تعني: أطويل أم قصير أفعيه أم طيب.

فإن قلت: ما فائدة أنتم وهم وهلا قبل أضللتهم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل! قلت: ليس السؤال عن الفعل ووجوده لأنه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب، وإنما هو عن متوليه فلا بد من ذكره وإلإثائه حرف الاستفهام حتى يعلم أنه المسؤول عنه.

فإن قلت: فإله سبحانه قد سبق علمه بالمسؤول عنه فما فائدة هذا السؤال؟ قلت: فائدته أن يحيبوا بما أجابوا به حتى يبيك عبيتهم بتكذيبهم إياهم فيبهتوا وينخدلوا وتزيد حسرتهم، ويكون ذلك نوعًا مما يلحقهم من غضب الله وعذابه ويغضب المؤمنين ويفرحوا بحالهم ونجاتهم من فضيحة أولئك، وليكون حكاية لك في القرآن لطفًا للمكلفين وفيه كسر بين لقول من يزعم أن الله يضل عباده على الحقيقة حيث يقول للمعبدون من دونه: أنتم أضللتموهم أم هم ضلوا بأنفسهم فيتبرون من إضلالهم ويستعينون به أن يكونوا مضلين ويقولون: بل أنت تفضلت من غير سابقة على هؤلاء وآبائهم تفضل جواد كريم، فجعلوا النعمة التي حقها أن تكون سبب الشكر سبب الكفر ونسيان النكر وكان لك سبب هلاكهم، فإذا برأت الملائكة والرسول أنفسهم من نسبة الإضلال الذي هو عمل الشياطين إليهم واستعانوا منه فهم لربهم الغني العدل أشد تبرئة وتنزيها منه ولقد نزهوه حين أضافوا إليه التفضل بالنعمة والتمتع بها، وأسندوا نسيان الذكر والتسبب به للبوارج إلى الكفرة فشرحوا الإضلال المجازي الذي أسنده الله إلى ذاته في قوله: ﴿يضل من يشاء﴾^(١) ولو كان هو المضل على الحقيقة لكان الجواب العتيد أن يقولوا: بل أنت أضللتهم^(٢) والمعنى: أنتم أوقعتموهم في الضلال

حيث القاهم في مكان ضيق يتراصون فيه تراسًا كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيره أنه يضيق عليهم كما يضيق الزج في الرمح وهم مع ذلك الضيق مسلسلون مقرنون في السلاسل قرنت أيبيهم إلى أعناقهم في الجوامع، وقيل: يقرن مع كل كافر شيطانه في سلسلة وفي أرجلهم الأصفاذ، والثبور الهلاك ودعاؤه أن يقال: واثبوره أي: تعال يا ثبور فهذا حينك وزمانك ﴿لا تدعوا﴾ أي: يقال لهم: ذلك أو هم أحقاء بأن يقال لهم: وإن لم يكن ثمة قول ومعنى:

﴿وادعوا ثبورًا كثيرًا﴾ إنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحدًا إنما هو ثبور كثير إما لأن العذاب أنواع والأوان كل نوع منها ثبور لشبته وقظاعته، أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها فلا غاية لهلاكهم الرجوع إلى الموصولين محذوف يعني: وعداها المتقون وما يشاؤنه وإنما قيل: كانت لأن ما وعده الله وحده فهو في تحقيقه كأنه قد كان أو كان مكتوبًا في اللوح قبل أن يراهم بأزمته متطاوله أن الجنة جزاؤهم ومصيرهم.

فإن قلت: ما معنى قوله:

قُلْ لِلَّهِ عِزٌّ أَرَجَّهَ الْخَلْدُ إِلَيَّ وَيُدَّ الْمُنْتَوَرُ كَأَنَّهُ لَمْ يَجَزَّهَ بِمَصِيرٍ ﴿٨﴾.

﴿كانت لهم جزاء ومصير﴾؟ قلت: هو كقوله: نعم، الثواب وحسن مرتفعًا فمدح الثواب ومكانه كما قال: بشس الشراب وساعت مرتفعًا فمدح العقاب ومكانه لأن النعيم لا يتم للمتعم إلا بطيب المكان وسعته وموافقة للمراد والشهوة وإن لا تنغص وكذلك العقاب يتضاعف بغثاثة الموضوع وضيقه وظلمته وجمعه لأسباب الاجتواء والكراهة، فلذلك ذكر المصير مع ذكر الجزاء والضمير في:

لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَلِيلٌ كَأَنَّهُ عَلَى رَيْكٍ وَعَدَا مَسْئُولًا ﴿٩﴾.

﴿كان﴾ لما يشاؤون والوعد الموعود أي: كان ذلك موعودًا واجبًا على ربك إنجازه حقيقة أن يستل، ويطلب لأنه جزاء وأجر مستحق وقيل: قد ساله الناس والملائكة في دعواتهم ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَبْجُودُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ عَائِتْرٌ أَضَلَلْتُمْ

(1) سورة فاطر، الآية: 8.

(2) قال أحمد: قد تقدم شرح عقيدة أهل الحق في هذا المعنى، وأن الباعث لهم على اعتقاد كون الضلال من خلق الله تعالى التزامهم للتوحيد المحض، والإيمان بالصرف الذي دل على صحته بعد الالة العقلية. قوله تعالى: ﴿الله خالق كل شيء﴾ والضللال شيء فوجب كونه خالقه هذا من حيث العموم، وأما من حيث الخصوص فأمثال قوله تعالى: ﴿يضل من تشاء ويهدي﴾ والأصل الحقيقة، وقول موسى عليه السلام: إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء، ويهدي بها من تشاء، فلو كان الإضلال مستحيلًا على الله تعالى =

= لما جاز أن يخاطبه الكليم بما لا يجوز، فإذا أوضح ذلك فالملائكة لم يستلوا في هذه الآية عن المضل لعبادهم حقيقة، فيقال لهم: من أضل هؤلاء؟ وإنما قيل لهم: أنتم أضللتموهم أم هم ضلوا؟ فليس الجواب المطابق العتيد أن يقولوا: أنت أضللتم، ولو كان هذا معتقدهم أن الله هو المضل حقيقة، لكان قولهم في جواب هذا السؤال: بل أنت أضللتم؟ مجاوزة لمحن السؤال ومحله، وإنما كان هذا الجواب مطابقًا لو قيل لهم: من أضل عبادي هؤلاء فقد وضع أن هذا السؤال لا يجاب عنه بما تخليه الزمخشري بتقدير أن يكون معتقدهم أن الله تعالى هو الذي أضلهم، وأن عدولهم عنه =

قالوا: خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا وقرئ يقولون: بالتاء والياء فمعنى من قرأ بالتاء.

فَقَدْ كَذَّبَكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا تَنْصُرُوا وَمَنْ يُظْلِمِ نَفْسًا نَفْسَهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿٨﴾.

فقد كذبكم بقولكم: إنهم آلهة ومعنى من قرأ بالياء فقد كذبكم بقولهم: سبحانه ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء.

فإن قلت: هل يختلف حكم الباء مع التاء والياء؟ قلت: إي: والله هي مع التاء كقوله: بل كذبوا بالحق والجار والمجرور بدل من الضمير كانه قيل: فقد كذبوا بما تقولون، وهي مع الياء كقولك: كتبت بالقلم، وقرئ يستطيعون بالتاء والياء أيضاً يعني فما تستطيعون أنتم يا كفار صرف العذاب عنكم وقيل: الصرف التوبة وقيل: الحيلة من قولهم: إنه ليتصرف أي: يحتال، أو فما يستطيع آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب، أو أن يحتالوا لكم، الخطاب على العموم للمكلفين، والعذاب الكبير لاحق بكل من ظلم والكافر ظالم لقوله: إن الشرك لظلم عظيم، والفسق ظالم لقوله: ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون، وقرئ ينقه بالياء وفيه ضمير الله أو ضمير مصدر يظلم.

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ يَمْعُزَ بَعْضٍ فَإِنَّهُمْ أَصْحَابُ عَذَابٍ ذَلِيلٍ ﴿٩﴾.

الجملة بعد إلا صفة لموصوف محذوف والمعنى: وما أرسلنا قبلك أحداً من المرسلين إلا أكليين ومشين وإنا حذف اكتفاء بالجار والمجرور أعني من المرسلين ونحوه قوله عز من قائل: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾^(١) على معنى: وما منا أحد، وقرئ ويمشون على البناء للمفعول أي: تمشيهم حواشيهم، أو الناس ولو قرئ يمشون لكان أوجه لولا الرواية وقيل: هو احتجاج على من قال: ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ﴿فقتة﴾ أي: محنة وأبتلاء وهذا تصبير لرسول الله ﷺ على ما قالوه واستبدعوه من أكله الطعام ومشيه في الأسواق بعد ما احتج عليهم بسائر الرسل، يقول: وجرت عادتي وموجب حكمتي على ابتلاء بعضكم أيها الناس ببعض، والمعنى: أنه ابتلى المرسلين بالمرسل إليهم وبمناصبتهم لهم العداوة

عن طريق الحق أم هم ضلوا عنه بأنفسهم، وضل مطاوع أضله وكان القياس ضل عن السبيل إلا أنهم تركوا الجار كما تركوه في هده الطريق، والأصل إلى الطريق وللطريق وقولهم: أضل البعير في معنى: جعله ضالاً أي: ضائعاً لما كان أكثر تلك بتفريط من صاحبه وقلة احتياط في حفظه قيل: أضله سواء كان منه فعل، أو لم يكن.

قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَلْبِثُ لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُرًا ﴿١٠﴾.

﴿سبحانك﴾ تعجب منهم قد تعجبوا مما قيل لهم؛ لأنهم ملائكة وأنبياء معصومون، فما أبعدهم عن الإضلال الذي هو مختص ببإليس وحزبه أو نطقوا بسبحانك ليلبوا على أنهم المسبحون المتقسون الموسومون بذلك، فكيف يليق بحالهم أن يضلوا عباده أو قصدوا به تنزيهه عن الأنداد، وأن يكون له نبي أو ملك أو غيرهما ندأ، ثم قالوا: ما كان يصح لنا ولا يستقيم ونحن معصومون أن نتولى أحداً دونك، فكيف يصح لنا أن نحمل غيرنا على أن يتولونا دونك، أو ما كان ينبغي لنا أن نكون أمثال الشياطين في توليهم الكفار كما تولاهم الكفار قال الله تعالى: ﴿فقاتلوا أولياء الشيطان﴾^(١) يريد الكفرة والذين كفروا أولياءهم الطاغوت، وقال أبو جعفر المدني: نتخذ على البناء للمفعول وهذا الفعل أعني اتخذ يتعدى إلى مفعول واحد كقولك: اتخذ ولياً وإلى مفعولين كقولك: اتخذ فلاناً ولياً قال الله تعالى: لم اتخذوا آلهة من الأرض وقال: واتخذ الله إبراهيم خليلاً، فالقراءة الأولى من المتعدى إلى واحد وهو من أولياء والأصل أن نتخذ أولياء فزيت من لتأكيد معنى النفي، والثانية من المتعدى إلى مفعولين فالأول ما بني له الفعل والثاني من أولياء ومن للتبعيض أي: لا نتخذ بعض أولياء وتتكبر أولياء من حيث أنهم أولياء مخصوصون وهم الجن والأصنام والذكر نكر الله والإيمان به أو القرآن والشرائع، والبور الهلاك يوصف به الواحد والجمع ويجوز أن يكون جمع بائر كعائد وعوذ، هذه المفاجأة بالاحتجاج والإلزام حسنة رائعة وخاصة إذا انضم إليها الالتفات وحذف القول ونحوها قوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير﴾^(٢) وقول القائل:

نسيان الذكر إليهم أي: الانهماك في الشهوات الذي نشأ عنه النسيان؛ لأنهم اختاروه لأنفسهم فصدقت نسبتهم إليهم، ونسبوا السبب الذي اقتضى نسيانهم، وإنهماكهم في الشهوات إلى الله تعالى، وهو استدراجهم ببسط النعم عليهم فيها ضلوا، فلا تنافي بين معتقد أهل الحق وبين مضمون قول الملائكة حينئذ، بل هما متواطئان على أمر واحد، والله أعلم.

(1) سورة النساء، الآية: 76.

(2) سورة المائدة، الآية: 19.

(3) سورة الصافات، الآية: 164.

ليس لأنهم لا يعتقدونه، ولكن لأنه لا يطابق، وقد بقي وراء ذلك نظر في أن جوابهم هذا يدل على متقدمهم الموافق لأهل الحق؛ لأن أهل الحق يعتقدون أن الله تعالى، وإن خلق لهم الضلالة إلا أن لهم اختياراً فيها وتميزاً لها، ولم يكونوا عليها مقسورين كما هم مقسورون على أفعال كثيرة يخلقها الله فيهم كالركات الرعشية ونحوها، وقد قدمنا في مواضع أن كل فعل اختياري له نسبتان: إن نظر إلى كونه مخلوقاً، فهو منسوب إلى الله تعالى، وإن نظر إلى كونه اختياريّاً للعبد، فهو منسوب إلى العبد، وبذلك قطعت الملائكة في قولهم: بل متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر، فنسبوا

التعجب ألا ترى أن المعنى ما أشد استكبارهم وما أكبر عتوهم وما أغلى نابا بواؤها كليب.

يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَبْرًا مَّحْجُورًا ﴿١٧﴾

﴿يوم يرون﴾ منصوب بأحد شيئين إما بما دل عليه ﴿لا بشرى﴾ أي: يوم يرون الملائكة يمنعون البشرى، أو يعدمونها ويومئذ للتكرير وإما بإضمار انكر أي: انكر يوم يرون الملائكة، ثم قال: ﴿لا بشرى يومئذ للمجرمين﴾ وقوله: للمجرمين إما ظاهر في موضع ضمير، وإما لأنه عام فقدتنا ولهم بعمومه ﴿حجراً محجوراً﴾ ذكره سيبويه في باب المصادر غير المتصرفة المنصوبة بأفعال متروكة إظهارها نحو معاذ الله، وقعدك الله، وعمرك الله، وهذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدو موثقراً وهجوم نازلة أو نحو ذلك يضعونها موضع الاستعاذة قال سيبويه: ويقول الرجل للرجل: اتفعل كذا وكذا فيقول: حجراً وهي من حجره إذا منعه لأن المستعذ طالب من الله أن يمنع المكروه، فلا يلحقه فكان المعنى: أسأل الله أن يمنع ذلك منعاً ويحجره حجراً ومجيئه على فعل، أو فعل في قراءة الحسن تصرف فيه لاختصاصه بموضع واحد كما كان قعدك وعمرك كذلك وأنشدت لبعض الرجاز:

قالت وفيها حيدة ونعر عوذبربي منكم وحجر فإن قلت: فإذا قد ثبت أنه من باب المصادر، فما معنى وصفه بمحجور؟ قلت: جاءت هذه الصفة لتأكيد معنى الحجر كما قالوا: ذيل ذائل والذيل الهوان وموت مائت والمعنى في الآية: أنهم يطلبون نزول الملائكة ويقترحونه وهم إذا رأوهم عند الموت أو يوم القيامة كرهوا لقاءهم، وفزعوا منهم لأنهم لا يلقونهم إلا بما يكرهون وقالوا عند رؤيتهم ما كانوا يقولونه عند لقاء العدو الموتور وشدة النازلة وقيل: هو من قول الملائكة: ومعناه حراماً محرماً عليكم الغفران والجنة والبشرى أي: جعل الله ذلك حراماً عليكم.

وَقَرِئَ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْأً مُنْشُورًا ﴿١٨﴾

ليس ههنا قديم ولا ما يشبه القدم ولكن مثلت حال هؤلاء وأعمالهم التي عملوها في كفرهم من صلة رحم وإغاثة ملهوف، وقرئ ضيف ومن على أسير وغير ذلك من مكارمهم ومحاسنهم بحال قوم خالفوا سلطانهم واستعصوا عليه، فقدم إلى أشيائهم وقصد إلى ما تحت أيديهم فافسدها ومزقها كل ممزق، ولم يترك لها أثراً ولا عثراً، والهباء ما يخرج من الكوة مع ضوء الشمس شبيه بالغبار وفي أمثالهم أقل من الهباء ﴿منثوراً﴾ صفة للهباء شبيهه بالهباء في قلته وحقارته عنده وأنه لا ينتفع به، ثم بالمنثور منه لأنك تراه منتظماً مع الضوء فإذا حركته

وأقاولهم الخارجة عن حد الإنصاف، وأنواع أذاهم وطلب منهم الصبر الجميل ونحوه ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾ وموقع ﴿اتصبرون﴾ بعد ذكر الفتنة موقع أيك بعد الابتلاء في قوله: ليلوكم أيك أحسن عملاً ﴿بصيراً﴾ عالماً بالصواب فيما يبتلى به وغيره، فلا يضيقن صدرك ولا يستخفك أقاولهم فإن في صبرك عليها سعادتك وفوزك في الدارين وقيل: هو تسلية له عما عيروه به من الفقر حين قالوا: أو يلقى إليه كنز، أو تكون له جنة وأنه جعل الأغنياء فتنة للفقراء لينظر هل يصبرون وأنها حكمت ومشيتته يغني من يشاء ويفقر من يشاء وقيل: جعلتك فتنة لهم لأنك لو كنت غنياً صاحب كنوز وجنان لكان ميلهم إليك وطاعتهم لك للنداء أو ممزوجة بالدنيا فإنما بعثتك فقيراً ليكون طاعة من يطيعك خالصة لوجه الله من غير طمع بنوي وقيل: كان أبو جهل والوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل ومن في طبنتهم يقولون: إن أسلمنا وقد أسلم قبلنا عمار وصهيب وبلال وفلان وفلان ترفعوا علينا إدلالاً بالسابقة فهو اقتتان بعضهم ببعض.

﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَفَدَّ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ ﴿١٩﴾

أي: لا ياملون لقاءنا بالخير لأنهم كفرة أو لا يخافون لقاءنا بالبشر والرجاء في لغة تهامة الخوف وبه فسر قوله تعالى: ﴿لا ترجون الله وقاراً﴾^(١) جعلت الصيرورة إلى دار جزائه بمنزلة لقائه لو كان ملقياً، اقترحوا من الآيات أن ينزل الله عليهم الملائكة فتخبرهم بأن محمداً صادق حتى يصدقوه، أو يروا الله جهرة فيأمرهم بتصديقه واتباعه ولا يخافوا إما أن يكونوا عالمين بأن الله لا يرسل الملائكة إلى غير الأنبياء، وأن الله لا يصح أن يرى وإنما علقوا إيمانهم بما لا يكون وإما أن لا يكونوا عالمين بذلك، وإنما أرادوا التعتن باقتراح آيات سوى الآيات التي نزلت وقامت بها الحجة عليهم كما فعل قوم موسى حين قالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة.

فإن قلت: ما معنى ﴿في أنفسهم﴾؟ قلت: معناه أنهم أضمر الاستكبار عن الحق وهو الكفر والعناد في قلوبهم واعتقدوه كما قال: إن في صدورهم إلا كبير ما هم بباليغية ﴿وعتو﴾ وتجاوزوا الحد في الظلم يقال: عتا علينا فلان، وقد وصف العتو بالكبير فبالغ في إفراطه يعني: أنهم لم يجسروا على هذا القول العظيم إلا لأنهم بلغوا غاية الاستكبار وأقصى العتو، واللام جواب قسم محذوف وهذه الجملة في حسن استئنافها غاية وفي أسلوبها قول القائل: وجارة جساس أبانا بنابها كليباً غلت ناب كليب بواؤها وفي فحوى هذا الفعل دليل على التعجب من غير لفظ

﴿الحق﴾ الثابت لأن كل ملك يزول يومئذ ويبطل ولا يبقى إلا ملكه، عض اليمين والأنامل والسقوط في اليد واكل البنان وحرق الاسنان والأرم وقرعها كنيات عن الغيظ والحسرة لانها من روانفها، فينكر الرافعة ويدل بها على المردوف فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة ويجد السامع عنده في نفسه من الروعة والاستحسان ما لا يجده عند لفظ المكنى عنه، وقيل: نزلت في عقبة بن أبي معيط بن أمية بن عبد شمس وكان يكثر مجالسة رسول الله ﷺ، وقيل: اتخذ ضيافة فدعا إليها رسول الله ﷺ فأبى أن ياكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين، ففعل وكان أبي بن خلف صديقه فعاتبه وقال: صبا يا عقبة قال لا، ولكن ألى أن لا ياكل من طعامي وهو في بيتي فاستحييت منه فشهدت له والشهادة ليست في نفسي، فقال: وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمداً فلم تطأ قفاه وتبزق في وجهه وتطم عينه، فوجده ساجداً في دار الندوة ففعل ذلك فقال النبي ﷺ: لا إلك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف فقتل يوم بدر أمراً علياً رضي الله عنه بقتله وقيل: قتله عاصم بن ثابت بن أفلح الانصاري، وقال: يا محمد إني من الصبية قال: إلى النار وطعن رسول الله ﷺ أبياً بأحد فرجع إلى مكة فمات⁽⁴⁾.

وَيَوْمَ يَنْفُخُ أَسْمَاءُ وَأَنفِمْ وَزِلَ الْمَلَائِكَةُ تَزِيلًا ﴿٧٥﴾
سَبِيلًا ﴿٧٦﴾

واللام في ﴿الظالم﴾ يجوز أن تكون للعهد يراد به عقبة خاصة، ويجوز أن تكون للجنس فيتناول عقبة وغيره، تمنى أن لو سحب الرسول وسلك معه طريقاً واحداً وهو طريق الحق ولم يتشعب به طرق الضلالة والهوى أو أراد أنني كنت ضالاً لم يكن لي سبيل قط، فليتنى حصلت بنفسني في صحبة الرسول سبيلاً.

يَوْنِيَّ يَنِي لَرِ أَتَّخِذُ فَلَائِي خَلِيلاً ﴿٧٨﴾

وقرئ: ﴿يا ويلتي﴾ بالياء وهو الأصل لأن الرجل ينادي ويلته وهي هلكته يقول لها تعالى: فهذا أوانك وإنما قلبت الياء ألفاً كما في صحاري ومداري، فلان كناية عن الإعلام كما أن الهن كناية عن الأجناس فإن أريد بالظالم عقبة فالمعنى ليتني لم أتحذ أبياً خليلاً فكنتي عن اسمه وإن أريد به الجنس، فكل من اتخذ من المضلين خليلاً كان لخليله اسم علم لا محالة فجعله كناية عنه.

لَقَدْ أَحْضَيْتَنِي مِنَ الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٨٠﴾

﴿عن النكر﴾ عن نكر الله أو القرآن، أو موعظة الرسول ويجوز أن يريد نطقه بشهادة الحق وعزمه على الإسلام،

الريح رأيته قد تناثر وزهب كل مذهب ونحوه قوله: ﴿كعصف ماكول﴾⁽¹⁾ لم يكف أن شبههم بالعصف حتى جعله مؤوفاً بالأكال ولا أن شبه عملهم بالهباء حتى جعله متناثراً، أو مفعول ثالث لجعلناه أي: فجعلناه جامعاً لحقارة الهباء والتناثر كقوله: ﴿كونوا قردة خاسئين﴾⁽²⁾ أي: جامعين للمسوخ والخسء ولأم الهباء وأو بليل الهبوة.

أَسْحَبُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٨١﴾

المستقر: المكان الذي يكونون فيه في أكثر أوقاتهم مستقرين يتجالسون ويتحدثون، والمقيل: المكان الذي يأوون إليه للاسترواح إلى أزواجهم والتمتع بمغازلتهم وملامستهم كما أن المترفين في الدنيا يعيشون على ذلك الترتيب، وروي أنه يفرغ من الحساب في نصف ذلك اليوم فيقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار وفي معناه قوله تعالى: ﴿إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون، هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون﴾⁽³⁾ قيل: في تفسير الشغل افتضاض الأبرار ولا نوم في الجنة وإنما سمي مكان دعوتهم واسترواحهم إلى الحور مقبلاً على طريق التشبيه وفي لفظ الأحسن رمز إلى ما يتزين به مقبلهم من حسن الوجوه، وملاحة الصور إلى غير ذلك من التحاسين والزين.

وَيَوْمَ تَنفُخُ أَسْمَاءُ وَأَنفِمْ وَزِلَ الْمَلَائِكَةُ تَزِيلًا ﴿٧٥﴾

وقرئ ﴿تشقق﴾ والأصل تتشقق فحذف بعضهم التاء وغيره أنغمها ولما كان انشقاق السماء بسبب طلوع الغمام منها جعل الغمام كأنه الذي تشقق به السماء كما تقول: شق السنام بالشفرة وانشق بها ونظيره قوله تعالى: ﴿السماء منفطر به﴾⁽⁴⁾.

فَإِنْ قُلْتَ: أَيُّ فِرْقٍ بَيْنَ قَوْلِكَ: انشقت الأرض بالنبات وانشقت عن النبات؟ قُلْتُ: معنى انشقت به: أن الله شقها بطلوعه فانشقت به ومعنى انشقت عنه: أن التربة ارتفعت عنه عند طلوعه، والمعنى: أن السماء تنفتح بغمام يخرج منها وفي الغمام الملائكة ينزلون وفي أيديهم صحائف أعمال العباد، وروي تنشق سماء سماء وتنزل الملائكة إلى الأرض وقيل: هو غمام أبيض رقيق مثل الضبابية ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم، وفي معناه قوله تعالى: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتهم الله في ظلل من الغمام والملائكة﴾⁽⁵⁾، وقرئ وتنزل الملائكة وتنزل الملائكة والملائكة، ونزلت الملائكة، وأنزل الملائكة، ونزل الملائكة، ونزل الملائكة على حنف الذنون الذي هو فاء الفعل من نزل قراءة أهل مكة.

الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ أَلْحَقٌ لِلزَّكِيِّ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابًا ﴿٨٢﴾

(4) سورة المزمل، الآية: 18.

(5) سورة البقرة، الآية: 210.

(6) نكره الواحدي في أسباب النزول، ص: 189.

(1) سورة الفيل، الآية: 5.

(2) سورة البقرة، الآية: 65.

(3) سورة يس، الآية: 55 - 56.

واحدة أو مفرقًا، وقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ جواب لهم أي: كذلك أنزل مفرقًا، والحكمة فيه أن نقوي بفريقه فؤادك حتى تبعه وتحفظه لأن المتلقن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئًا بعد شيء وجزأ عقيب جزء ولو ألقى عليه جملة واحدة لبعل به وتعبا بحفظه، والرسول ﷺ فارقت حاله حال موسى وداود وعيسى عليهم السلام حيث كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب وهم كانوا قارئين كاتبين، فلم يكن له بد من التلقن والتحفظ فأنزل عليه منجمًا في عشرين سنة وقيل: في ثلاث وعشرين وأيضًا فكان ينزل على حسب الحوائث وجوابات السائلين، ولأن بعضه منسوخ وبعضه ناسخ ولا يتأتى ذلك إلا فيما أنزل مفرقًا.

فإن قلنت: ذلك في كذلك يجب أن يكون إشارة إلى شيء تقدمه والذي تقدم هو إنزاله جملة واحدة، فكيف فسرت به كذلك أنزلناه مفرقًا؟ قلنت: لأن قولهم: لولا أنزل علي جملة معناه لم أنزل مفرقًا والليل على فساد هذا الاعتراض أنهم عجزوا عن أن يأتوا بنجم واحد من نجومه، وتحلوا بسورة واحدة من أصغر السور فابرزوا صفحة عجزهم وسجلوا به على أنفسهم حين لانوا بالمناسبة، وفزعوا إلى المحاربة، ثم قالوا: هلا نزل جملة واحدة كأنهم قدروا على تفاريقه حتى يقدروا على جملة ﴿وورتلناه﴾ معطوف على الفعل الذي تعلق به كذلك كأنه قال: كذلك فرقناه ورتلناه، ومعنى ترتيله: أن قدره آية بعد آية ووقفه عقيب وقفه، ويجوز أن يكون المعنى: وأمرنا بترتيل قراءته وذلك قوله: ﴿ورتل القرآن ترتيلاً﴾ (4) أي: اقراه بترسل وتثبت ومنه حديث عائشة رضي الله عنها في صفة قراءته ﷺ لا كسريكم هذا لو أراد السامع أن يعد حروفه يعدها (5)، وأصله الترتيل في الأسنان وهو تغليجها يقال: ثغر رتل ومرتل ويشبه بنور الأقحوان في تغليجه، وقيل: هو أنزله مع كونه متفرقًا على تمكث وتمهل في مدة متباعدة وهي عشرون سنة ولم يفرقه في مدة متقاربة.

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ نَبِيرًا (٢٢)

﴿ولا يأتونك﴾ بسؤال عجيب من سؤالاتهم الباطلة كأنه مثل في البطلان إلا أتيناك نحن بالجواب الحق الذي لا محيد عنه وبما هو أحسن معنى ومؤدى من سؤالهم، ولما كان التفسير هو الكشف عما يدل عليه الكلام وضع موضع معناه، فقالوا: تفسير هذا الكلام كيت وكيت كما قيل: معناه كذا وكذا أو لا يأتونك بحال وصفة عجيبة يقولون: هلا كانت هذه صفتك وحالك نحو أن يقرن بك ملك ينذر معك أو يلقي إليك كنز أو تكون لك جنة، أو ينزل عليك القرآن جملة إلا أعطيناك نحن من الأحوال ما يحق

والشيطان إشارة إلى خليله سماه شيطانًا لأنه أضله كما يضل الشيطان، ثم خذله ولم ينفعه في العاقبة أو أراد إبليس وأنه هو الذي حمله على مخالطة المضل ومخالفة الرسول، ثم خذله أو أراد الجنس وكل من تشيطان من الجن والإنس، ويحتمل أن يكون وكان الشيطان حكاية كلام الظالم وأن يكون كلام الله، واتخذت يقرأ على الإدغام والإظهار، والإدغام أكثر.

وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قُوَّتِي أَخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٢٣)

الرسول محمد ﷺ وقومه قريش حكى الله عنه شكواه قومه إليه وفي هذه الحكاية تعظيم للشكاية، وتخويف لقومه لأن الأنبياء كانوا إذا التجؤا إليه وشكوا إليه قومهم حل بهم العذاب ولم ينظروا.

وَكَذَلِكَ جَمَلًا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٢٤)

ثم أقبل عليه مسلبيًا ومواسيًا وواعدًا النصره عليهم فقال: ﴿وكذلك﴾ كان كل نبي قبلك مبتلى بعداوة قومه وكفك بي هاديًا إلى طريق قهرهم والانتصار منهم وناصرًا لك عليهم، مهجورًا تركوه وصنوا عنه وعن الإيمان به وعن النبي ﷺ من تعلم القرآن وعلمه وعلق مصحفًا لم يتعاهده، ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقًا به يقول: يا رب العالمين عبك هذا اتخذني مهجورًا اقض بيني وبينه (1)، وقيل هو من هجر إذا هذى أي: جعلوه مهجورًا فيه فحذف الجار وهو على وجهين أحدهما زعمهم أنه هنيان وباطل وأساطير الأولين، والثاني أنهم كانوا إذا سمعوه هجروا فيه كقوله تعالى: ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾ (2) ويجوز أن يكون المهجور بمعنى: الهجر كالمجلود والمعقول والمعنى اتخذوه هجرًا، والعلو يجوز أن يكون واحدًا وجمعًا كقوله: ﴿فإنهم عدو لي﴾ (3) وقيل: المعنى وقال الرسول يوم القيامة.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٢٥)

﴿نزل﴾ ههنا بمعنى أنزل لا غير كخبر بمعنى أخبر وإلا كان متدافعًا وهذا أيضًا من اعتراضاتهم واقتراحاتهم الدالة على شرادهم عن الحق وتجافيهم عن اتباعه قالوا: هلا أنزل عليه دفعة واحدة في وقت واحد كما أنزلت الكتب الثلاثة وماله أنزل على التفاريق والقائلون قريش وقيل: اليهود وهذا فضول من القول ومماراة بما لا طائل تحته لأن أمر الإعجاز والاحتجاج به لا يختلف بنزوله جملة

(5) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: صفة النبي ﷺ، الحديث: 3568.

ومسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبو

هريرة رضي الله عنه، الحديث: (160 - 2493)، والترمذي في

كتاب: المناقب، باب: في كلام النبي ﷺ، (الحديث: 3639).

(1) نكره الثعلبي في تفسيره.

(2) سورة فصلت، الآية: 26.

(3) سورة الشعراء، الآية: 77.

(4) سورة المزمل، الآية: 4.

عطف عادًا على هم في جعلناهم أو على الظالمين لأن المعنى: وعدنا الظالمين، وقرئ: وشمود على تأويله القليلة وأما المنصرف فعلى تأويل الحي أو لأنه اسم الأب الأكبر قيل: في أصحاب الرس كانوا قومًا من عبدة الأصنام أصحاب أبار ومواش فبعث الله إليهم شعيبًا فدعاهم إلى الإسلام، فتمالوا في طغيانهم وفي إيذائه فبينما هم حول الرس، وهو البئر غير المطوية عن أبي عبيدة، انهارت بهم فحسف بهم وبيدارهم وقيل: الرس قرية بفلج اليمامة قتلوا نبيهم، فهلكوا وهم بقية شمود قوم صالح وقيل هم: أصحاب النبي حنظلة بن صفوان كانوا مبتلين بالنعناء وهي أعظم ما يكون من الطير سميت لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له: فتح وهي تنقض على صبيانهم، فتخطفهم إن أعوزها الصيد فدعا عليها حنظلة فأصابتها الصاعقة، ثم أنهم قتلوا حنظلة فاهلكوا وقيل هم: أصحاب الأخنود والرس هو الأخنود وقيل: الرس بإنطاكية قتلوا فيها حبيبًا النجار وقيل: كذبوا نبيهم ورسوه في بئر أي: رسوه فيها ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي: بين ذلك المذكور وقد ينكر الذاكر أشياء مختلفة، ثم يشير إليها بذلك ويحسب الحاسب أعدادًا متكاثرة، ثم يقول: فذلك كيت وكيت على معنى فذلك المحسوب، أو المعداد.

وَكَلَّا مَرَاتًا لَهُ الْأُنْتَلَىٰ وَكَلَّا تَرَاتًا تَنِيرًا (٣٦).

﴿ضربنا له الأمثال﴾ بينا له القصص العجيبة من قصص الأولين ووصفنا لهم ما أجروا إليه من تكذيب الأنبياء، وجرى عليهم من عذاب الله وتدميره، والتفتير والتفتيت والتكسير ومنه التبر وهو كسار الذهب والفضة والزجاج، وكلا الأول منصوب بما دل عليه ضربنا له الأمثال وهو اثنتان، وحنرنا والثاني بترنا لأنه فارغ له.

وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَىٰ آلِ الْقُرْيَةِ النَّارَ أَمْطَرْنَا سَوَاءً فَكَلَّمُوا بِكَوْنِهِمْ بَلْ كَانُوا لَا يَتَّخِذُونَ شُكْرًا (٣٧).

أراد بالقرية سدوم من قرى قوم لوط وكانت خمسا أهلك الله تعالى أربعا بأهلها وبقيت واحدة، ومطر السوء الحجارة يعني: أن قريشا مزوا مرارا كثيرة في متاجرهم إلى الشام على تلك القرية التي أهلكت بالحجارة من السماء ﴿أَقْلَمُ يَكُونُوا﴾ في مرار مرورهم ينظرون إلى آثار عذاب الله ونكاته وينكرون ﴿بَلْ كَانُوا﴾ قوما كفرة بالبعث لا يتوقعون ﴿نَشُورًا﴾ وعاقبة فوضع الرجاء موضع التوقع لأنه إنما يتوقع العاقبة من يؤمن، فمن ثم لم ينظروا ولم ينكروا ومزوا بها كما مرت ركابهم أو لا يأملون نشورا كما يأمله المؤمنون لطمعهم في الوصول إلى ثواب أعمالهم أو لا يخافون على اللغة التهامية إن الأولى نافية

لك في حكمتنا ومشيئتنا أن تعطاء، وما هو أحسن تكميلا لما بعثت عليه ودلالة على صحته يعني: أن تنزله مفرقا وتحثيهم بأن يأتوا ببعض تلك التفاريق كلما نزل شيء منها أدخل في الإعجاز، وأنور للحجة من أن ينزل كله جملة ويقال لهم: جيئوا بمثل هذا الكتاب في فصاحته مع بعد ما بين طرفيه كانه قيل لهم: إن حاملكم على هذه السؤالات أنكم تضللون سبيله وتحثرون مكانه ومنزلته.

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ كِلَابَهُمْ إِلَىٰ جِهَتِهِمْ أَذْلَٰكُ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٨).

ولو نظرتهم بعين الإنصاف وأنتم من المسحوبين على وجوههم إلى جهنم لعلمتم أن مكانكم شر من مكانه، وسبيلكم أضل من سبيله وفي طريقته قوله قل: ﴿هَلْ أَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ الآية، ويجوز أن يراد بالمكان الشرف والمنزلة وأن يراد الدار والمسكن كقوله: ﴿إِذَا الْفَرِيقَيْنِ خِيرَ مَقَامًا وَأَحْسَنَ نَدِيًّا﴾ (١) وصف السبيل بالضلال من الإسناد المجازي، وعن النبي ﷺ يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أثلاث: ثلث على الدواب وثلث على وجوههم وثلث على أقدامهم ينسلون نسلًا (٢).

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (٣٩) فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَرَبْنَاهُمْ نَدِيرًا (٤٠).

الوزارة تنافي النبوة فقد كان يبعث في الزمن الواحد أنبياء ويؤمرون بأن يوازر بعضهم بعضا، والمعنى: فذهبنا إليهم فكذبوهم فدمرناهم كقوله: ﴿أَضْرَبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَاَنْفَلِقْ﴾ (٣) أي: فضرِب فانفلق أراد اختصار القصة فنذكر حاشيتها أولا وآخرها لانها المقصود من القصة بطولها اعني إلزام الحجة ببعثه الرسل، واستحقاق التدمير بتكذيبهم وعن علي رضي الله عنه، فدمرتهم وعنه فدمرناهم، وقرئ: ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ﴾ على التأكيد بالنون الثقيلة.

وَقَوْمٌ نُوِجَ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٤١).

كانهم كذبوا نوحا ومن قبله من الرسل صريحا وكان تكذيبهم لواحد منهم تكذيب للجميع، ولم يروا بعثة الرسل أصلا كالبراهمة ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ وجعلنا إغراقهم أو قصتهم ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ إما أن يعني بهم: قوم نوح وأصله واعتدنا لهم إلا أنه قصد تظليهم، فظاهر وإما أن يتناولهم بعمومه.

وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كِبِيرًا (٤٢).

== باب: ما جاء في شأن المشي، (الحديث: 2424).

(1) سورة مريم، الآية: 73.

(2) 1 - أخرجه أحمد في المسند، 164/5.

(3) سورة الشعراء، الآية: 63.

2 - أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة، والرفائق والورع، ==

والثانية مخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بينهما.

وَإِذَا رَأَوْهُ تَسَاجُدًا لَهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴿١٦﴾

واتخذ هزواً في معنى استهزا به والأصل اتخذ هزواً وهزواً ومهزواً به ﴿هَذَا﴾ محكي بعد القول المضممر وهذا استصغار ﴿وَبَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ وإخراجه في معرض التسليم والإقرار وهم على غاية الجحود والإنكار سخريه واستهزاء ولو لم يستهزوا لقالوا: هذا الذي زعم أو ادعى أنه مبعوث من عند الله رسولاً.

إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرْجُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿١٧﴾

وقولهم: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا﴾ دليل على فرط مجاهدة رسول الله ﷺ في دعوتهم وبذله قصارى الوسع والطاقة في استعفافهم مع عرض الآيات والمعجزات عليهم حتى شافوا بزعيمهم أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام، لولا فرط لجاحهم واستمساكلهم بعبادة آلهتهم و﴿لَوْلَا﴾ في مثل هذا الكلام جار من حيث المعنى، لا من حيث الصنعة مجرى التقيد للحكم المطلق ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيد ودلالة على أنهم لا يفوتونه وإن طال مدة الإمهال ولا بدّ للوعيد أن يلحقهم فلا يغرنهم التأخير وقوله: ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ كالجواب عن قولهم: إن كاد ليضلنا لأنه نسبة لرسول الله ﷺ إلى الضلال من حيث لا يضل غيره إلا من هو ضال في نفسه ويروى أنه من قول أبي جهل لعنه الله.

أَوَدَّعَىٰ مَنَ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ فَأَنَّىٰ تَكُونُ عَلَيْهِ سَبِيلًا ﴿١٨﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

من كان في طاعة الهوى في دينه يتبعه في كل ما يأتي وينز لا يتبصر لدليل ولا يصغي إلى برهان، فهو عابد هواه وجاعله إلهه فيقول لرسوله: هذا الذي لا يرى معبوداً إلا هواه كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى أفنتوكل عليه، وتجبره على الإسلام وتقول لا بدّ أن تسلم شئت أو أبیت ولا إكراه في الدين وهذا كقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ ^(١) ﴿لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصِيطِرٍ﴾ ^(٢) ويروى أَنَّ الرجل منهم كان يعبد الحجر فإذا رأى أحسن منه رمى به وأخذ آخر ومنهم الحرث بن قيس السهمي أم هذه منقطعة معناه: بل أتحسب كان هذه المذمة أشد من التي تقدمتها حتى حقت بالإضراب عنها إليها وهي كونهم مسلوبی الأسماع والعقول، لأنهم لا يلقون إلى استماع الحق أدناً ولا إلى

تدبره عقلاً ومشبهين بالأنعام التي هي مثل في الغفلة والضلال، ثم أرجح ضلالة منها.

فَإِنْ قُلْتَ: لم آخر هواه والأصل قولك: اتخذ الهوى إلهاً! قُلْتَ: ما هو إلا تقديم المفعول الثاني على الأول للعناية كما تقول: علمت منطلقاً زيدا لفضل عنايتك بالمنطق ^(٣).

فَإِنْ قُلْتَ: ما معنى نكر الأكثر؟ قُلْتَ: كان فيهم من لم يصده عن الإسلام الأداء واحد وهو حب الرياسة وكفى به داء عضالاً.

فَإِنْ قُلْتَ: كيف جعلوا أضل من الأنعام؟ قُلْتَ: لأن الأنعام تنقاد لأربابها التي تلغفها، وتتعهدها وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها وتهتدي لمراعيها ومشاريها وهؤلاء لا ينفادون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذي هو عدوهم ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع، ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار والمهلك، ولا يهتمون للحق الذي هو المشرع الهني والعذب الروي.

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ رِجَالًا ﴿٢٠﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ألم تنظر إلى صنع ربك وقدرته ومعنى مد الظل: أن جعله يمتد وينبسط فينتفع به الناس ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أي: لاصقاً بأصل كل مظل من جبل وبناء وشجرة غير منبسط، فلم ينتفع به أحد سمي انبساط الظل وامتداده تحركاً منه وعدم تلك سكناً ومعنى كون الشمس ليلاً أَنَّ الناس يستدلون بالشمس وبأحوالها في مسيرها على أحوال الظل من كونه ثابتاً في مكان زائلاً ومتسعاً ومتقلصاً، فينبون حاجتهم إلى الظل واستغناءهم عنه على حسب ذلك. ثُمَّ قَضَيْتَهُ إِنَّنَا قَعَمًا يُبِيرُ الْيُبْرُ ﴿٢١﴾

وقبضه إليه أنه ينسخه يضح الشمس ﴿يُسِيرُ﴾ أي: على مهل وفي هذا القبض اليسير شيئاً بعد شيء من المنافع ما لا يعد ولا يحصر ولو قبض دفعة واحدة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعاً.

فَإِنْ قُلْتَ: ثم في هذين الموضعين كيف موقعها؟ قُلْتَ: موقعها للبيان تفاضل الأمور الثلاثة كان الثاني أعظم من الأول، والثالث أعظم منهما تشبيهاً لتباعد ما بينهما في الفضل بتباعد ما بين الحوادث في الوقت ووجه آخر وهو أنه مد الظل حين بنى السماء كالقبة المضروبة، ودحا الأرض تحتها فألقت القبة ظلها على الأرض فينما في أنيمه جوب لعدم النير ولو شاء لجعله ساكناً مستقرّاً على تلك الحالة، ثم خلق الشمس وجعلها على ذلك الظل أي:

= بخول آرايت متبداً وخبر المبتداً: هواه، والخبر: إلهه، وتقديم الخبر كما علمت يفيد الحصر، فكانه قال: آرايت من لم يتخذ معبوده إلا هواه، فهو أبلغ في نمه وتوبيخه والله أعلم.

(1) سورة ق، الآية: 45.

(2) سورة الغاشية، الآية: 22.

(3) قال أحمد: وفيه نكتة حسنة، وهي إفادة الحصر، فإن الكلام قبل =

ما لم يتغير أحد أوصافه فهو طهور.

فإن قُلْتُ: فما تقول في قوله ﷺ: حين سئل عن بثر بضاعة فقال: الماء طهور لا ينجسه شيء إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه^(١)! **قُلْتُ:** قال الواقدي: كان بثر بضاعة طريقاً للماء إلى البساتين.

لَتَحْيَى بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا وَتَحْيِيهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْتُمْ وَأَنْتَ كَثِيرًا (١٩).

وإنما قال: **«مَيِّتًا»** لأن البلدة في معنى البلد في قوله: فسقناه إلى بلد ميت وأنه غير جار على الفعل كفعول ومفعول ومفعيل، وقرئ نسقيه بالفتح وسقى وأسقى لغتان وقيل: أسقاه جعل له سقياً، الأناسي جمع إنسي أو إنسان ونحوه ظرابي في ظربان على قلب النون ياء والأصل أناسين وظرابين، وقرئ بالتخفيف بحذف باء أفاعيل كقولك: أناعم في أناعم.

فإن قُلْتُ: إنزال الماء موصوفاً بالطهارة وتعليه بالإحياء والسقي يؤنن بأن الطهارة شرط في صحة ذلك كما تقول: حملني الأمير على فرس جواد لأصيد عليه الوحش! **قُلْتُ:** لما كان سقي الأناسي من جملة ما أنزل له الماء وصفه بالطهور إكراماً لهم وتتميماً للمنة عليهم وبياناً أن من حقهم حين أراد الله لهم الطهارة وأرادهم عليها أن يؤثروها في بواطنهم ثم في ظواهرهم وإن يربوا بأنفسهم عن مخالطة القانورات كلها كما ربا بهم ربهم.

فإن قُلْتُ: لم خص الأنعام من بين ما خلق من الحيوان الشارب؟ **قُلْتُ:** لأن الطير والوحش تبعد في طلب الماء، فلا يعوزها الشرب بخلاف الأنعام ولأنها قنية الأناسي وعامة منافعهم متعلقة بها فكان الإنعام عليهم بسقي أنعامهم كالإنعام بسقيهم.

فإن قُلْتُ: فما معنى تنكير الأنعام والأناسي ووصفها بالكثرة؟ **قُلْتُ:** معنى ذلك: أن عليه الناس وجلهم منيخون بالقرب من الأودية والأنهار ومنابع الماء فيهم غنية عن سقى السماء وأعقابهم وهم كثير منهم لا يعيشهم إلا ما ينزل الله من رحمته وسقيا سمائه وكذلك قوله: **«لنحيي به بلدة ميتاً»** يريد بعض بلاد هؤلاء المتبعدين من مظان الماء.

فإن قُلْتُ: لم قدم أحياء الأرض وسقي الأنعام على سقي الأناسي؟ **قُلْتُ:** لأن حياة الأناسي بحياة أرضهم وحياة أنعامهم، فقدم ما هو سبب حياتهم وتعيشهم على سقيهم ولأنهم إذا ظفروا بما يكون سقياً أرضهم

سلطها عليه ونصبها ليلاً متبوعاً له كما يتبع الليل في الطريق فهو يزيد بها وينقص ويمتد ويتقلص، ثم نسخه بها فقبضه قبضاً سهلاً يسيراً غير عسير ويحتمل أن يريد قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه، وهي الأجرام التي تبقى الظل فيكون قد نكر إعدامه بإعدام أسبابه كما نكر إنشاءه بإنشاء أسبابه وقوله: **«قبضناه إلينا»** يدل عليه وكذلك قوله: **«يسيراً»** كما قال: ذلك حشر علينا يسير.

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْإِنْسَانَ وَإِنَّ سَبَابَكُمْ جَعَلَ الْإِنْسَانَ نُشُورًا (٢٠).

شبه ما يستر من ظلام الليل باللباس الساتر والسبات الموت والمسبوت الميت لأنه مقطوع الحياة وهذا كقوله: **«وهو الذي يتوفاكم بالليل»**^(١).

فإن قُلْتُ: هلا فسرت بالراحة! **قُلْتُ:** النشور في مقابلته يابأه أباء العيوف الورد وهو مرق وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق فيها إظهار لنعمته على خلقه لأن الاحتجاب يستر الليل كم فيه لكثير من الناس من فوائد دينية ودنيوية والنوم واليقظة وشبههما بالموت والحياة أي عبرة فيها لمن اعتبر وعن لقمان أنه قال لابنه: يا بني كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنشور.

وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنْ أَلَمَاءٍ مَاءً طَهُورًا (٢١).

قرئ الريح والرياح نشراً إحياء ونشراً جمع نشور وهي المحيية ونشراً تخفيف نشر وبشراً تخفيف بشر جمع بشور وبشرى **«بين يدي رحمته»** استعارة مليحة أي: قدام المطر **«طهوراً»** بليغاً في طهارته وعن أحمد بن يحيى هو ما كان طاهراً في نفسه مطهراً لغيره، فإن كان ما قاله شرحاً لبلاغته في الطهارة كان سيدياً ويعضده قوله تعالى: **«وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به»**، وإلا فليس فعول من التفعيل في شيء، والطهور على وجهين في العربية صفة واسم غير صفة فالصفة قولك: ماء طهور كقولك: طاهر والاسم قولك: لما يتطهر به طهور كالوضوء، والوقود لما يتوضأ به وتوقد به النار وقولهم: تطهروا طهوراً حسناً كقولك: وضوا حسناً نكره سيبويه ومنه قوله ﷺ: لا صلاة إلا بطهور^(٢) أي: طهارة.

فإن قُلْتُ: ما الذي يزيل عن الماء اسم الطهور؟ **قُلْتُ:** تيقن مخالطة النجاسة أو غلبتها على الظن تغير أحد أوصافه الثلاثة أو لم يتغير، أو استعماله في البدن لاداء عبادة عند أبي حنيفة وعند مالك بن أنس رضي الله عنهما

= (الحديث: 66) والترمذي في كتاب: الطهارة، باب: أن الماء لا ينجسه شيء، (الحديث: 66)، والنسائي في كتاب: المياه، باب: نكر بثر بضاعة، (الحديث: 326)، وابن ماجه في كتاب: الطهارة، باب: الحياض، (الحديث: 519).

(1) سورة الأنعام، الآية: 60.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: الطهارة، باب: ما جاء في لا تقبل صلاة بغير طهور، (الحديث: 1)، ومسلم عن ابن عمر في كتاب: الطهارة، باب: وجوب الطهارة للصلاة الحديث: (224).

(3) أخرجه أبو داود في كتاب: الطهارة، باب: ما جاء في بثر بضاعة، =

ومواسيهم لم يعدموا أسقياهم.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كَثُورًا ﴿٥٠﴾

بسبب كونك نذير كافة القرى ﴿جهادًا كبيرًا﴾ جامعًا لكل مجاهدة.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا يِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِزْرًا مُّحْجُورًا﴾ ﴿٥١﴾

سمى المائين الكثيرين الواسعين بحرين والأفراة والبليغ العنوبة حتى يضرب إلى الحلاوة والأجاج نقيضه، ومرجعهما خلاهما متجاورين متلاصقين وهو بقدرته يفصل بينهما ويمنعهما التمازج وهذا من عظيم اقتداره وفي كلام بعضهم، وبحران أحدهما مع الآخر ممزوج وماء العنب منهما بالأجاج ممزوج ﴿برزخًا﴾ حائلًا من قدرته كقوله تعالى: ﴿بغير عمد ترونها﴾ يريد بغير عمد مرئية وهو قدرته، وقرئ: ﴿ملح﴾ على فعل وقيل: كأنه حنف من ملح تخفيفًا كما قال: وصليانًا بردًا يريد باردًا.

فإن قلنا: ﴿وحجراً محجوراً﴾ ما معناه؟ قلنا: هي الكلمة التي يقولها: المتعوذ وقد فسرناها وهي ههنا واقعة على سبيل المجاز كأن كل واحد من البحرين يتعوذ من صاحبه ويقول له: حجراً محجوراً كما قال: لا يبغيان أي: لا يبغي أحدهما على صاحبه بالممازجة، فانتفاء البغي ثمة كالتعوذ ههنا جعل كل واحد منهما في صورة الباغي على صاحبه فهو يتعوذ منه وهي من أحسن الاستعارات وأشهدها على البلاغة.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ ﴿٥٢﴾

أراد فقسم البشر قسمين نوي نسب أي نكورا ينسب إليهم، فيقال: فلان بن فلان وفلانة بنت فلان وذوات صهر أي: إنثاء يصاهر بهن ونحوه قوله تعالى: ﴿فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾ (2) ﴿وكان ربك قديراً﴾ حيث خلق من النطفة الواحدة بشراً نوعين ذكرًا وأنثى.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ ﴿٥٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٤﴾

الظهير والمظاهر كالعوين والمعاون وفعل بمعنى: مفاعل غير عزيز، والمعنى: أن الكافر يظاهر الشيطان على ربه بالعداوة والشرك. روي أنها نزلت في أبي جهل، ويجوز أن يريد بالظهير الجماعة كقوله: ﴿والملائكة بعد ذلك ظهير﴾ (3) كما جاء الصديق والخليط يريد بالكافر الجنس وأن بعضهم مظاهر لبعض على إطفاء نور دين الله، وقيل: معناه وكان الذي يفعل هذا الفعل وهو عبادة ما لا ينفع ولا يضر على ربه هيئاً مهيناً من قولهم: ظهرت به إذا خلفته خلف ظهره لا تلتفت إليه وهذا نحو قوله: ﴿أولئك لا خلاق لهم في

يريد ولقد صرفنا هذا القول بين الناس في القرآن وفي سائر الكتب والصحف التي أنزلت على الرسل عليهم السلام، وهو ذكر إنشاء السحاب وإنزال القطر ليفكروا ويعتبروا ويعرفوا حق النعمة فيه، ويشكروا ﴿قالبى﴾ أكثرهم إلا كفران النعمة وجحودها وقلة الاكتراث لها، وقيل: صرفنا المطر بينهم في البلدان المختلفة والأوقات المتغايرة وعلى الصفات المتفاوتة من وابل وطل وجود ورنان وديمة وراهام، فأبوا إلا الكفور وأن يقولوا: مطرنا بنوء كذا ولا يذكروا صنع الله ورحمته وعن ابن عباس رضي الله عنهما ما من عام أقل مطراً من عام، ولكن الله قسم ذلك بين عباده على ما شاء (1) وتلا هذه الآية وروي أن الملائكة يعرفون عند المطر ومقداره في كل عام لأنه لا يختلف ولكن تختلف فيه البلاد، وينتزع من ههنا جواب في تنكير البلدة والأنعام والآناسي كأنه قال لنحیی به بعض البلاد الميتة ونسقيه بعض الأنعام والآناسي، وذلك البعض كثير.

فإن قلنا: هل يكفر من ينسب الأمطار إلى الأنواء؟ قلنا: إن كان لا يراها إلا من الأنواء ويجحد أن تكون هي والأنواء من خلق الله فهو كافر وإن كان يرى إن الله خالقها، وقد نصب الأنواء دلائل وأمارات عليها لم يكفر. وَلَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾

يقول لرسوله ﷺ: ﴿ولو شئنا﴾ لخففنا عنك أعباء نذارة جميع القرى، و﴿لبعثنا في كل قرية﴾ نبياً ينذرنا وإنما قصرنا الأمر عليك وعظمتك به وأجللناك وفضلناك على سائر الرسل، فقابل ذلك بالتشديد والتصبر.

فَلَا تُلَاحِظْ كَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾

﴿فلا تطع الكافرين﴾ فيما يريدونك عليه وإنما أراد بهذا تهيبه وتهيبج المؤمنين، وتحريكهم والضمير للقرآن أو لترك الطاعة الذي يدل عليه فلا تطع والمراد أن الكفار يجدون ويجتهدون في توهين أمرك، فقابلهم من جبك واجتهادك وعضك على نواجذك بما تغلبهم به، وتعلوهم وجعله جهاداً كبيراً لما يحتمل فيه من المشاق العظام ويجوز أن يرجع الضمير في به إلى ما دل عليه، ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً من كونه نذير كافة القرى لأنه لو بعث في كل قرية نذيراً لوجب على كل نذير مجاهدة قريبته، فاجتمعت على رسول الله ﷺ تلك المجاهدات كلها، فكبر جهاده من أجل ذلك وعظم فقال له: ﴿وجاهدهم﴾

(3) سورة التحريم، الآية: 4.

(1) أخرجه الحاكم في المستدرک، 403/2.

(2) سورة القيامة، الآية: 39.

الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم»^(١).

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَيْنَا سَبِيلًا
(٥٧).

مثال ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ﴾ والمراد إلا فعل من شاء واستثنائه عن الأجر قول: ذي شفقة عليك قد سعى لك في تحصيل مال ما اطلب منك ثواباً على ما سعتيت إلا أن تحفظ هذا المال ولا تضيعه فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب، ولكن صورته هو بصورة الثواب وسماه باسمه، فافاد فائدتين إحداهما قلع شهة الطمع في الثواب من أصله كأنه يقول لك: إن كان حفظك لمالك ثواباً فإني اطلب الثواب والثانية إظهار الشفقة البالغة وإنك إن حفظت مالك اعتد بحفظك ثواباً ورضي به كما يرضي المثلث بالثواب، ولعمري أن رسول الله ﷺ كان مع المبعوث إليهم بهذا الصدد وفوقه، ومعنى اتخاذهم إلى الله سبيلاً تقربهم إليه وطلبهم عنده الزلفى بالإيمان والطاعة وقيل: المراد التقرب بالصدقة والنفقة في سبيل الله.

وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ لَا يَمُوتَ وَنَسِخَ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ يَذُنُوبَ
عِبَادِهِ خَيْرًا (٥٨).

أمره بأن يثق به ويسند أمره إليه في استكفاء شروهم مع التمسك بقاعدة التوكل وأساس الالتجاء، وهو طاعته وعبادته وتنزيهه وتحميده وعرفه أن الحي الذي لا يموت حقيق بأن يتوكل عليه وحده، ولا يتكل عليه غيره من الأحياء الذين يموتون، وعن بعض السلف أنه قرأها فقال: لا يصح لذي عقل أن يثق بعدها بمخلوق، ثم أراه أن ليس إليه من أمر عبادته شيء آمنوا أم كفروا، وأنه خبير بأعمالهم كاف في جزاء أعمالهم.

اللَّهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِرُوحِهِ خَيْرًا (٥٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (٦٠).

﴿في ستة أيام﴾ يعني: في مدة مقدارها هذه المدة لأنه لم يكن حينئذ نهار ولا ليل، وقيل: ستة أيام من أيام الآخرة وكل يوم ألف سنة والظاهر أنها من أيام الدنيا، وعن مجاهد أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ووجهه أن يسمى الله لملائكته تلك الأيام المقطرة بهذه الأسماء، فلما خلق الشمس وأدارها وترتب أمر العالم على ما هو عليه جرت التسمية على هذه الأيام وأما الداعي إلى هذا العدد أعني الستة دون سائر الأعداد فلا نشك أنه داعي حكمة لعلمنا أنه لا يقدر تقديرًا إلا بداعي حكمة وإن كنا لا نطلع عليه ولا نهتدي إلا معرفته، ومن ذلك تقدير لملائكة الذين هم أصحاب النار تسعة عشر وحمة العرش

ثمانية والشهور اثني عشر والسموات سبعاً والأرض كذلك والصلوات خمساً وأعداد النصب والحدود والكفارات وغير ذلك والإقرار بدواعي الحكمة في جميع أفعاله وبأن ما قدره حق وصواب هو الإيمان، وقد نص عليه في قوله: ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾^(٢)، ثم قال: وما يعلم جنود ربك إلا هو وهو الجواب أيضاً في أن لم يخلقها في لحظة وهو قادر على ذلك، وعن سعيد بن جبير رضي الله عنهما إنما خلقها في ستة أيام وهو يقدر على أن يخلقها في لحظة تعليمًا لخلق الرفق والتثبث وقيل: اجتمع خلقها يوم الجمعة فجعله الله عبداً للمسلمين، الذي خلق مبتدأ ﴿والرحمن﴾ خبره أو صفة للحي والرحمن خبر مبتدأ محذوف، أو بدل عن المستتر في استوى وقرئ الرحمن بالجر صفة للحي، وقرئ فسل والباء في به صلة سل كقوله تعالى: ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾^(٣) كما تكون عن صلته في نحو قوله: ﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾^(٤) فسأل به كقوله: اهتم به واعتنى به واشتغل به وسأل عنه كقولك: بحث عنه وفتش عنه ونقر عنه أو صلة خير أو تجعل خبيراً مفعول سل يريد، فسل عنه رجلاً عارفاً يخبرك برحمته أو فسل رجلاً خبيراً به وبرحمته أو فسل بسؤاله خبيراً كقولك: رأيت به أسداً أي: برؤيته، والمعنى: إن سألته وجنته خبيراً أو تجعله حالاً عن الهاء تريد فسل عنه عالماً بكل شيء، وقيل: الرحمن اسم من أسماء الله منكر في الكتب المتقدمة ولم يكونوا يعرفونه فقيل: فسل بهذا الاسم من يخبرك من أهل الكتاب حتى يعرف من ينكره، ومن ثمة كانوا يقولون: ما نعرف الرحمن إلا الذي باليامة يعنون مسليمة وكان يقال له: رحمن اليامة ﴿وما الرحمن﴾ يجوز أن يكون سؤالاً عن المسمى به لأنهم ما كانوا يعرفونه بهذا الاسم، والسؤال عن المجهول بما ويجوز أن يكون سؤالاً عن معناه لأنه لم يكن مستعملاً في كلامهم كما استعمل الرحيم، والرحوم، والراحم، أو لأنهم أنكروا إطلاقه على الله تعالى.

﴿لما تأمرونا﴾ أي: للذي تأمرنا بمعنى تأمرنا سجوده على قوله: أمرتك الخير، أو لأمرك لنا، وقرئ بالياء كأن بعضهم قال لبعض: اتسجد لما يأمرنا محمد ﷺ أو يأمرنا المسمى بالرحمن، ولا نعرف ما هو وفي ﴿زادهم﴾ ضمير اسجدوا للرحمن لأنه هو المقول.

نَبَارَكَ اللَّهُ جَمَلٌ فِي أَسْمَاءِ بَرُوكٍ وَجَمَلٌ فِيهَا يَرْجَى وَفَرَمٌ مُزِيرٌ
(٦١).

البروج منازل الكواكب السبعة السيارة: الحمل والثور

(3) سورة الماعراج، الآية: 1.

(4) سورة التكاثر، الآية: 8.

(1) سورة آل عمران، الآية: 77.

(2) سورة المدثر، الآية: 31.

والهون الرفق واللين ومنه الحديث أحب حبيبك هوناً ما وقوله المؤمنون هينون لينون والمثل: إذا عَزَّ أخوك فهن⁽³⁾ ومعناه إذا عاسر فياسر والمعنى: أنهم يمشون بسكينة ووقار وتواضع لا يضربون بأقدامهم ولا يخفقون بنعالهم إشرًا وبطراً، ولذلك كره بعض العلماء الركوب في الأسواق ولقوله: ويمشون في الأسواق ﴿سَلَامًا﴾ تسليماً منكم لا نجاهلكم، ومتاركة لا خير بيننا ولا شر أي يتسلم منكم تسليماً فاقيم السلام مقام التسلم وقيل قالوا: سداً من القول يسلمون فيه من الإيذاء والإثم والمواد بالجهل السفه وقلة الأدب وسوء الثروة من قوله:

أَلَا يَجْهَلُونَ أَحَدَ عَلَيْنَا فَنَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ
وعن أبي العالية نسختها آية القتال ولا حاجة إلى ذلك لأن الإغضاء عن السفهاء وترك المقابلة مستحسن في الأدب والمروءة والشرعية وأسلم للعرض والورع.

وَالَّذِينَ يَسْتُرُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيمًا ﴿١٤﴾

البيتوتة خلاف الظلول، وهو أن يدرك الليل نمت أو لم تنم وقالوا: من قرأ شيئاً من القرآن في صلاته وإن قل فقد بات ساجداً وقائماً وقيل: هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء والظاهر أنه وصف لهم بإحياء الليل أو بأكثره يقال: فلان يظل صائماً ويبيت قائماً.

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّكَ عَذَابُكَ كَانَ غَرَامًا ﴿١٥﴾

﴿غَرَامًا﴾ هلاكاً وخسراناً ملحاً لازماً قال: يوم النسيار ويوم الجفا ركانا عذاباً وكانا غراماً وقال:

إن يعاقب يكن غراماً وإن يعد طجزيلاً فإنه لا يبالي

ومنه الغريم إلحاحه ولزامه، وصفهم بإحياء الليل ساجدين وقائمين ثم عقبه بنكر دعوتهم هذه إيداناً بأنهم مع اجتهدهم خائفون مبهتلون إلى الله في صرف العذاب عنهم كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾⁽⁴⁾

إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿١٦﴾

﴿سَاءَتْ﴾ في حكم بثست وفيها ضمير مبهم يفسره مستقرًّا والمخصوص بالذم محذوف معناه ساءت مستقرًّا ومقامًا هي وهذا الضمير هو الذي ربط الجملة باسم إن وجعلها خبراً لها، ويجوز أن يكون ساءت بمعنى: أحزنت وفيها ضمير اسم إن ومستقر حال أو تمييز والتعليان يصح أن يكونا متداخلين ومترافيين وأن يكونا من كلام الله

والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت سميت بالبروج التي هي القصور العالية لأنها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانها واشتقاق البرج من التبرج لظهوره والسراج الشمس كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾⁽¹⁾ وقرئ مسرجاً وهي الشمس والكواكب الكبار معها، وقرأ الحسن والأعمش وقمرًا منيرًا وهي جمع ليلة قمرء كأنه قال: وذا قمرًا منيرًا لأن الليالي تكون قمرًا بالقمر، فأضافه إليها ونظيره في بقاء حكم المضاف بعد سقوطه وقيام المضاف إليه مقامه قول حسان:

بردى يصفق بالرحيق السلسل

يريد ماء بردى ولا يبعد أن يكون القمر بمعنى: القمر كالرشد والرشد والعرب والعرب.

وَهُ أَزْزَى جَمَلٌ أَلِيلٌ وَالنَّهَارُ خَلْفَهُ إِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَرَّ أَوْ أَرَادَ شُكْرًا ﴿١٧﴾

الدلفة من خلف كالركبة من ركب وهي الحالة التي يخلف عليها الليل والنهار كل واحد منهما الآخر، والمعنى: جعلهما نوي خلفه أي: نوي عقبه أي: يعقب هذا ذاك وذلك هذا ويقال: الليل والنهار يختلفان كما يقال: يعتقبان ومنه قوله: واختلاف الليل والنهار ويقال: بفلان خلفه واختلاف إذا اختلف كثيرًا إلى متبرزه، وقرئ يذكر ويذكر وعن أبي بن كعب رضي الله عنه يتذكر، والمعنى: لينظر في اختلافهما الناظر فيعلم أن لا بد لانتقالهما من حال إلى حال وتغيرهما من ناقل، ومغير ويستدل بذلك على عظم قدرته ويشكر الشاكر على النعمة فيهما من السكون بالليل والتصرف بالنهار كما قال عز وعلا: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾⁽²⁾ أو ليكونا وقتين للمتذكرين والشاكرين من فاته في أحدهما ورده من العبادة قام به في الآخر وعن الحسن رضي الله عنه من فاته عمله من التذكر والشكر بالنهار كان له في الليل مستعتب، ومن فاته بالليل كان له في النهار مستعتب.

وَعَسَاءُ الزَّمَانُ أَذِلَّةٌ بِمَا نَبْشِرُ عَلَى الْآزْمِ هُونًا وَإِذَا حَاطَبَهُمُ الْجِنُّونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿١٨﴾

﴿وعباد الرحمن﴾ مبتدا خبره في آخر السورة كأنه قيل: وعباد الرحمن الذين هذه صفاتهم أولئك يجزون الغرفة، ويجوز أن يكون خبره الذين يمشون وأضافهم إلى الرحمن تخصيصاً وتفصيلاً، وقرئ وعباد الرحمن، وقرئ يمشون ﴿هونًا﴾ حال أو صفة للمشي بمعنى: هينين أو مشياً هيناً إلا أن في وضع المصدر موضع الصفة مبالغة

= باب: في الاقتصاد في النفقة وتحريم أكل المال الباطل، (الحديث: 8129).

(1) سورة نوح، الآية: 16.

(2) سورة القصص، الآية: 73.

(4) سورة المؤمنون، الآية: 60.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في الاقتصاد في الحب والبغض (الحديث: 1997)، والبيهقي في شعب الإيمان، =

وحكاية لقولهم.

وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (١٧).

قرئ: ﴿يَقْتُرُوا﴾ بكسر التاء وضمها، ويقترؤا بتخفيف التاء وتشديد ما والفتحة والإقترار والتقتير التضييق الذي هو نقيض الإسراف، والإسراف مجاوزة الحد في النفقة ووصفهم بالقصد الذي هو بين الغلو والتقصير وبمثله أمر رسول الله ﷺ: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾^(١)، وقيل: الإسراف إنما هو الإنفاق في المعاصي فأما في القرب فلا إسراف وسمع رجل رجلاً يقول: لا خير في الإسراف، فقال: لا إسراف في الخير وعن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه شكر عبد الملك بن مروان حين زوجه ابنته وأحسن إليه فقال: وصلت الرحم وفعلت وصنعت رجاء بكلام حسن، فقال ابن لعبد الملك: إنما هو كلام أعده لهذا المقام فسكت عبد الملك فلما كان بعد أيام نخل عليه الابن حاضر، فسأله عن نفقته وأحواله فقال: الحسنة بين السيتين فعرف عبد الملك أنه أراد ما في هذه الآية، فقال لابنه: يا بني اهذا أيضاً مما أعده وقيل: أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا لا ياكلون طعاماً للنعيم واللذة ولا يلبسون ثوباً للجمال والزينة، ولكن كانوا ياكلون ما يسد جوعتهم ويعينهم على عبادة ربهم ويلبسون ما يستر عورتهم ويكفونهم من الحر والقر، وقال عمر رضي الله عنه: كفى سرقة أن لا يشتري رجل شيئاً إلا اشتراه فأكله^(٢) والقوام العدل بين الشيتين لاستقامة الطرفين واعتدلهما ونظير القوام من الاستقامة السواء من الاستواء، وقرئ قواماً بالكسر وهو ما يقام به الشيء يقال: أنت قوامنا بمعنى: ما تقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص المنصوبان أعني بين ذلك قواماً جائز أن يكونا خبرين معاً وأن يجعل بين ذلك لغواً، وقواماً مستقراً وأن يكون الظرف خبراً وقواماً حالاً مؤكدة وأجاز القراء أن يكون بين ذلك اسم كان على أنه مبني لإضافته إلى غير متمكن كقوله: (لم يمنع الشرب منها غير إن نطقت) وهو من جهة الإعراب لا بأس به ولكن المعنى ليس بقوي لأن ما بين الإسراف والتقتير قوام لا محالة فليس في الخبر الذي هو معتمد الفائدة فائدة.

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (١٨).

﴿حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي: حرّمها والمعنى: حرّم قتلها و﴿إلا بالحق﴾ متعلق بهذا القتل المحظوف أو بلا يقتلون ونفي هذه المقبحات العظام عن الموصوفين بتلك الخلال العظيمة

في الدين للتعريض بما كان عليه أعداء المؤمنين من قریش وغيرهم، كأنه قيل: والذين براهم الله وطهرهم مما أنتم عليه والقتل بغير الحق يدخل فيه الواد وغيره، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك قلت: ثم أي قال: أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك قلت: ثم أي قال: أن تزاني حليلة جارك.^(٣) فأنزل الله تصديقه، وقرئ يلقى فيه أثاماً، وقرئ يلقى بإثبات الألف وقد مر مثله والأثام جزء الإثم بوزن الوبال والنكال ومعناها قال:

جزئ الله ابن عروة حيث أمسى عفوفاً والعقوق له أثام وقيل: هو الإثم ومعناه يلقى جزء أثام، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه أياماً أي: شداًد يقال: يوم نو أيام لليوم العصيب.

يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَوَّلاً (١٩).

﴿يضاعف﴾ بدل من يلقى لأنهما في معنى واحد كقوله: متى تأتانا تلتم بنا في ديارنا نجد حطباً جزلاً وناراً تاججا وقرئ يضعف ونضعف له العذاب بالنون ونصب العذاب، وقرئ بالرفع على الاستئناف أو على الحال وكذلك يخلد، وقرئ ويخلد على البناء للمفعول مخففاً ومثقلاً من الإخلاد والتخليد، وقرئ وتخلد بالتاء على الالتفات.

إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِم حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا رَحِيمًا (٢٠).

﴿يبدل﴾ مخفف ومثل وكذلك سيئاتهم.

فَإِنْ قُلْتَ: ما معنى مضاعفة العذاب وإبدال السيئات حسنات؟ **قُلْتَ:** إذا ارتكب المشرك معاصي مع الشرك عذب على الشرك وعلى المعاصي جميعاً، فتضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه وإبدال السيئات حسنات أنه يمحوها بالتوبة ويثبت مكانها الحسنات الإيمان والطاعة، والتقوى وقيل: يبدلهم بالشرك إيماناً ويقتل المسلمين قتل المشركين وبالزنا عفة وإحصاناً.

وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٢١).

يريد ومن يترك المعاصي ويندم عليها ويدخل في العمل الصالح فإنه بذلك تائب إلى الله **﴿مَتَابًا﴾** مرضياً عنده مكفراً للخطايا محصلاً للثواب، أو فإنه تائب متاباً إلى الله الذي يعرف حق التائبين ويفعل بهم ما يستوجبون، والذي يحب التوابين ويحب المتطهرين وفي كلام بعض العرب الله أفرح بتوبة العبد من المضل الواجد والظلمان الوارد والعقيم الوالد أو فإنه يرجع إلى الله وإلى ثوابه مرجعاً حسناً وأي مرجع.

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٩.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، ٤٦/٥، (الحديث: ٥٧٢١).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، ومن سورة الفرقان، باب: =

= «والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر»، (الحديث: ٤٧٦١)، ومسلم في

كتاب: الإيمان، باب: كون الشرك اقبح الذنوب، وبيان اعظمها بعده،

الحديث: (١٤١ - ٨٦).

وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾

يَحْتَمَلُ أَنَّهُمْ يَنْفَرُونَ عَنْ مُحَاضِرِ الْكَذَّابِينَ وَمُجَالِسِ الْخَطَايَيْنِ فَلَا يَحْضُرُونَهَا وَلَا يَقْرُبُونَهَا تَنْزَهًُا عَنْ مَخَالَطَةِ الشَّرِّ وَأَهْلِهِ وَصِيَانَةً لِنَفْسِهِمْ عَمَّا يَثْلُمُهُ لِأَنَّ مَشَاهِدَةَ الْبَاطِلِ شَرَكَةٌ فِيهِ وَلِذَلِكَ قِيلَ: فِي النَّظَارَةِ إِلَى كُلِّ مَا لَمْ تَسُوْغِهِ الشَّرِيعَةُ هُمْ شُرَكَاءُ فَاعْلِيهِ فِي الْإِثْمِ لِأَنَّ حُضُورَهُمْ وَنَظَرَهُمْ لِبَلِيلِ الرِّضَا بِهِ وَسَبَبِ وَجُودِهِ وَالزِّيَادَةِ فِيهِ لِأَنَّ الَّذِي سَلَطَ عَلَى فِعْلِهِ هُوَ اسْتِحْسَانُ النَّظَارَةِ، وَرَغِبَتُهُمْ فِي النَّظَرِ إِلَيْهِ وَفِي مُوَاعِظِ عَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِيَّاكُمْ وَمُجَالَسَةِ الْخَطَايَيْنِ، وَيَحْتَمَلُ أَنَّهُمْ لَا يَشْهَدُونَ شَهَادَةَ الزُّورِ فَحَذَرُ الْمُضَافِ وَأَقِيمِ الْمُضَافَ إِلَيْهِ مَقَامَهُ وَعَنِ قِتَادَةِ مُجَالِسِ الْبَاطِلِ وَعَنِ ابْنِ الْحَنْفِيَةِ اللَّهْوِ وَالْغِنَاءِ وَعَنِ مُجَاهِدِ أَعْيَادِ الْمُشْرِكِينَ. ﴿اللَّغْوُ﴾ كُلُّ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُلْغَى وَيُطْرَحَ وَالْمَعْنَى: وَإِذَا مَرُّوا بِأَهْلِ اللَّغْوِ وَالْمُشْتَغَلِينَ بِهِ مَرُّوا مُعْرِضِينَ عَنْهُمْ مُكْرِمِينَ أَنْفُسَهُمْ عَنِ التَّوَقُّفِ عَلَيْهِمْ، وَالْخُرُوضِ مَعَهُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾^(١) وَعَنِ الْحَسَنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمْ تَسْفَهُهُمْ الْمَعَاصِي وَقِيلَ: إِذَا سَمِعُوا مِنَ الْكَفَّارِ الشَّتْمَ وَالْأَذَى أَعْرَضُوا وَصَفَحُوا، وَقِيلَ: إِذَا نَكَرُوا النِّكَاحَ كُنُوا عَنْهُ.

وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾

﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا﴾ لَيْسَ بِنَفْيِ الْخُرُودِ وَإِنَّمَا هُوَ إِثْبَاتٌ لَهُ وَنَفْيٌ لِلصَّمِّ وَالْعَمَى كَمَا تَقُولُ: لَا يُلْقَانِي زَيْدٌ مُسْلِمًا هُوَ لِلسَّلَامِ لَا لِلْقَاءِ وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ إِذَا نَكَرُوا بِهَا أَكْبَرُوا عَلَيْهَا حَرَصًا عَلَى اسْتِمَاعِهَا وَأَقْبَلُوا عَلَى الْمُنْكَرِ بِهَا وَهُمْ فِي إِكْبَابِهِمْ عَلَيْهَا سَامِعُونَ بِأَذَانٍ وَأَعْيَةٍ مُبْصِرُونَ بَعِيُونَ رَاعِيَةً لَا كَالَّذِينَ يَنْكُرُونَ بِهَا، فَتَرَاهُمْ مُكْبِنِينَ عَلَيْهَا مُقْبِلِينَ عَلَى مَنْ يَنْكُرُ بِهَا مُظْهِرِينَ الْحَرَصَ الشَّدِيدَ عَلَى اسْتِمَاعِهَا وَهُمْ كَالصَّمِّ الْعَمِيَانِ حَيْثُ لَا يَعُونَهَا وَلَا يَتَبَصَّرُونَ مَا فِيهَا كَالْمُنَافِقِينَ وَأَشْبَاهَهُمْ.

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتًا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا لَبَنًا حَلِيمًا ﴿٧٤﴾

قُرَّةُ نَرِيَّتِنَا وَنَرِيَّتَانَا وَقُرَّةُ أَعْيُنٍ وَقُرَّةُ أَعْيُنٍ سَالُوا رَبَّهُمْ أَنْ يَرْزُقَهُمْ أَزْوَاجًا وَأَعْقَابًا عَمَالًا اللَّهُ يَسْرُونَ بِمَكَانِهِمْ وَتَقَرُّ بِهِمْ عِيُونُهُمْ وَعَنِ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ لَيْسَ شَيْءٌ أَقَرَّ لَعِينِ الْمُؤْمِنِ مِنْ أَنْ يَرَى زَوْجَتَهُ وَأَوْلَادَهُ مُطِيعِينَ لِلَّهِ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هُوَ الْوَلَدُ إِذَا رَأَاهُ يَكْتُبُ الْفَقْهَ وَقِيلَ: سَالُوا أَنْ يُلْحَقَ اللَّهُ بِهِمْ أَزْوَاجُهُمْ وَنَرِيَّتُهُمْ فِي الْجَنَّةِ لَيْتَ

لَهُمْ سُورُهُمْ أَرَادَ أَثْمَةً فَلَا تَكْفِي بِالوَاحِدِ لِدَلَالَتِهِ عَلَى الْجِنْسِ، وَلَعَلَّ الْمَلْبَسَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ وَأَرَادُوا جَعَلَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِمَامًا أَوْ أَرَادَ جَمْعَ أَمْ كَصَانِمْ وَصِيَامٍ أَوْ أَرَادُوا جَعَلْنَا إِمَامًا وَاحِدًا لِأَحْبَابِنَا وَاتَّفَاقَ كَلِمَتِنَا، وَعَنِ بَعْضِهِمْ فِي الْآيَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الرِّيَاسَةَ فِي الدِّينِ يَجِبُ أَنْ تَطْلُبَ وَيَرْغَبَ فِيهَا وَقِيلَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ فِي الْعَشْرَةِ الْمُبَشِّرِينَ بِالْجَنَّةِ.

فَإِنْ قُلْتُ: مَنْ فِي قَوْلِهِ: مَنْ أَزْوَاجُنَا مَا هِيَ؟ قُلْتُ: يَحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ بَيَانِيَّةً كَانَهُ قِيلَ: هَبْ لَنَا قُرَّةً أَعْيُنٍ ثُمَّ بَيَّنَّتِ الْقُرَّةَ وَفَسَّرَتْ بِقَوْلِهِ: مَنْ أَزْوَاجُنَا وَنَرِيَّتَانَا وَمَعْنَاهُ أَنْ يَجْعَلَهُمُ اللَّهُ لَهُمْ قُرَّةً أَعْيُنٍ وَهُوَ مِنْ قَوْلِهِمْ: رَأَيْتُ مِنْكَ أَسَدًا أَيْ: أَنْتَ أَسَدٌ وَأَنْ تَكُونَ ابْتِدَائِيَّةً عَلَى مَعْنَى هَبْ لَنَا مِنْ جَهَنَّمَ مَا تَقَرُّ بِهِ عِيُونُنَا مِنْ طَاعَةِ وَصَلَاةٍ.

فَإِنْ قُلْتُ: لِمَ قَالَ: قُرَّةً أَعْيُنٍ فَتَنْكَرُ وَقُلْتُ: أَمَّا التَّنْكِيرُ فَلِأَجْلِ تَنْكِيرِ الْقُرَّةِ لِأَنَّ الْمُضَافَ لَا سَبِيلَ إِلَى تَنْكِيرِهِ إِلَّا بِتَنْكِيرِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، كَانَهُ قِيلَ: هَبْ لَنَا مِنْهُمْ سُورًا وَفَرَحًا وَإِنَّمَا قِيلَ: أَعْيُنٍ دُونَ عِيُونٍ لِأَنَّهُ أَرَادَ أَعْيُنَ الْمُتَّقِينَ، وَهِيَ قَلِيلَةٌ بِالإِضَافَةِ إِلَى عِيُونٍ غَيْرِهِمْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾^(٢) وَيُجَوِّزُ أَنْ يُقَالَ: فِي تَنْكِيرِ أَعْيُنٍ أَنَّهَا أَعْيُنٌ خَاصَّةٌ وَهِيَ أَعْيُنُ الْمُتَّقِينَ.

أُولَئِكَ يَمْجُرُونَ الْفُرْقَةَ بَيْنَ صَبْرٍ وَيَلْقُونَ فِيهَا حِجَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَلِيلِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَفْرًا وَمَقَامًا ﴿٧٦﴾

المراد يَجُوزُونَ الْغُرَفَاتِ وَهِيَ الْعِلَالِي فِي الْجَنَّةِ فُوحِدَ اقْتِصَارًا عَلَى الْوَاحِدِ الدَّالِّ عَلَى الْجِنْسِ وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمَنُونَ، وَقِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ فِي الْغُرَّةِ ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ بِصَبْرِهِمْ عَلَى الطَّاعَاتِ وَعَنِ الشَّهَوَاتِ وَعَلَى أَذَى الْكَفَّارِ وَمُجَاهِدَتِهِمْ وَعَلَى الْفَقْرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَإِطْلَاقُهُ لِأَجْلِ الشَّيَاحِ فِي كُلِّ مُصْبِرٍ عَلَيْهِ، وَقُرِّيَ يَلْقَوْنَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَاهُمْ نَضْرَةٌ وَسُرُورًا وَيَلْقَوْنَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: يَلْقَى أَثَامًا، وَالتَّحِيَّةُ دَعَاءُ بِالتَّعْمِيرِ وَالسَّلَامُ دَعَاءُ بِالسَّلَامَةِ يَعْنِي: أَنْ الْمَلَائِكَةَ يَحْيُونَهُمْ وَيَسْلُمُونَ عَلَيْهِمْ، أَوْ يَحْيِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيَسْلُمُ عَلَيْهِ، أَوْ يَعْطُونَ التَّبَقِيَّةَ وَالتَّخْلِيدَ مَعَ السَّلَامَةِ عَنْ كُلِّ آفَةٍ اللَّهُمَّ وَفَقْنَا لَطَاعَتَكَ وَاجْعَلْنَا مَعَ أَهْلِ رَحْمَتِكَ وَارْزُقْنَا مِمَّا تَرْزُقُهُمْ فِي دَارِ رِضْوَانِكَ.

قُلْ مَا يَعْجَبُ بِكَ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَوَاكُمُ ﴿٧٧﴾

لَمَّا وَصَفَ عِبَادَةَ الْعِبَادِ وَعَدَّ صَالِحَاتِهِمْ وَحَسَنَاتِهِمْ وَائْتَنَى عَلَيْهِمْ مِنْ أَجْلِهَا وَعَوَّدَهُمُ الرِّفْعَ مِنْ دَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ أَتَبَعَ ذَلِكَ بَيَانًا أَنَّهُ إِنَّمَا أَكْثَرُ لَأُولَئِكَ وَعَبَا بِهِمْ وَأَعْلَى

= أَعْيُنَ، وَهَذَا أُسْلِمَ مِنْ تَأْوِيلِهِ، فَإِنَّ الْمُتَّقِينَ وَإِنْ كَانُوا بِالإِضَافَةِ إِلَى غَيْرِهِمْ قَلِيلًا، إِلَّا أَنَّهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ عَلَى كَثْرَةِ مِنَ الْعَدَدِ، وَالْمُعْتَبَرُ فِي إِطْلَاقِ جَمْعِ الْقَلَّةِ أَنْ يَكُونَ الْمَجْمُوعُ قَلِيلًا فِي نَفْسِهِ لَا بِالنِّسْبَةِ وَالِإِضَافَةِ، وَابْنُ أَعْلَمَ.

(1) سورة القصص، الآية: 55.

(2) سورة سبأ، الآية: 13.

(3) قال أحمد: والظاهر أن المحكي كلام كل أحد من المتقين، فكانه قال: يقول كل واحد منهم: اجعل لنا من أزواجنا ونريتنا قررة =

المؤلف من الحروف المبسوطة تلك آيات الكتاب المبين.

لَمَّا بَلَغَ نَجْمًا مِّنَ الْآيَاتِ يَكُونُ مُؤْمِنًا ۚ (٣).

البخ أن يبلغ بالذبح البخاع بالباء وهو عرق مستبطن الفقار، وذلك أقصى حد الذابح ولعل للإشفاق يعني: أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على ما فاتك من إسلام قومك ﴿ألا يكونوا مؤمنين﴾ لئلا يؤمنوا ولا متناع إيمانهم، أو خيفة أن لا يؤمنوا وعن قتادة رضي الله عنه ﴿بإخاع﴾ نفسك على الإضافة.

إِن تَأْتِي نَزْلًا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ مَّا خَوَّضِينَ (٤).

أراد آية ملجئة إلى الإيمان قاصرة عليه ﴿فظلت﴾ معطوف على الجزء الذي هو ﴿ينزل﴾ لأنه لو قيل: أنزلنا لكان صحيحاً ونظيره فأصدق وأكن كأنه قيل: اصدق، وقد قرئ لو شئنا لأنزلنا وقرئ فظلت أعناقهم.

فإن قلت: كيف صح مجيء خاضعين خبراً عن الأعناق؟ قلت: أصل الكلام فظلوا لها خاضعين فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع، وترك الكلام على أصله كقوله: ذهب أهل اليمامة كان الأهل غير منكور أو لما وصفت بالخضوع الذي هو للعقاء قيل: خاضعين كقوله تعالى: ﴿إلي ساجدين﴾ (٢) وقيل: أعناق الناس رؤسؤهم ومقدمهم شبهوا بالأعناق كما قيل لهم: هم الرؤس والنواصي والصور قال: في محفل من نواصي الناس مشهود، وقيل: جماعات الناس يقال: جاءنا عنق من الناس لفوج منهم، وقرئ فظلت أعناقهم لها خاضعة وعن ابن عباس رضي الله عنهما نزلت هذه الآية فينا وفي بني أمية قال: ستكون لنا عليهم لدولة فنذل لنا أعناقهم بعد صعوبة ويلحقهم هو أن بعد عزة.

وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن دَكِّ مِّنَ الرَّحْمَنِ يُحْدِثُوا إِلَّا كَأَنَّهُ مَن مَّزِينٍ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَتَدْرَأُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٦).

أي وما يجدد لهم الله بوحية موعظة وتذكيراً إلا جددوا إعراضاً عنه وكفراً به.

فإن قلت: كيف خولف بين الألفاظ والغرض واحد وهي الإعراض والتكذيب والاستهزاء؟ قلت: إنما خولف بينها لاختلاف الأغراض كأنه قيل: حين أعرضوا عن الذكر فقد كذبوا به وحين كذبوا به، فقد خف عندهم قدره وصار عرضة للاستهزاء والسخرية لأن من كان قابلاً للحق مقبلاً عليه كان مصدقاً لا محالة ولم يظن به التكذيب، ومن كان مصدقاً به كان موقراً له ﴿فسيأتيهم﴾ وعيد لهم وإنذار بأنهم سيعلمون إذا مسهم عذاب الله يوم بدر أو يوم القيامة ﴿ها﴾ الشيء الذي كانوا يستهزئون به وهو القرآن وسيأتيهم أنبأؤه وأحواله التي كانت خافية عليهم.

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَاهِيَتِهَا بِمَا كَرِهَ رَحْمَتُ رَبِّهِ (٧).

ذكروهم ووعدهم ما وعدهم لأجل عبادتهم، فأمر رسوله أن يصرح للناس ويجزم لهم القول: بأن الاكتراث لهم عند ربهم إنما هو للعبادة وحدها لا لمعنى آخر، ولولا عبادتهم لم يكثر لهم البتة ولم يعتد بهم ولم يكونوا عنده شيئاً يبالي به، والدعاء للعبادة وما متضمنة لمعنى الاستفهام وهي في محل النصب وهي عبارة عن المصدر كأنه قيل: وأي عبء يعبا بكم لولا دعاؤكم يعني: أنكم لا تستأهلون شيئاً من العبء بكم لولا عبادتكم وحقيقة قولهم: ما عبات به ما اعتدت به من فوارج همومي ومما يكون عباً على كما تقول: ما اكترثت له أي: ما اعتدت به من كوارثي، ومما يهمني وقال الزجاج في تأويل ما يعبا بكم ربي: أي وزن يكون لكم عنده، ويجوز أن تكون ما نافية ﴿فقد كنيتهم﴾ يقول: إذا أعلمتكم أن حكمي اني لا اعتد بعبادي إلا لعبادتهم فقد خالفتم بتكذيبكم حكمي فسوف يلزمكم أثر تكذيبكم حتى يكبكم في النار ونظيره في الكلام أن يقول: الملك لمن استعصى عليه إن من عانتني أن أحسن إلى من يطيعني ويتبع أمري فقد عصيت فسوف ترى ما أحل بك بسبب عصيانك وقيل: معناه ما يصنع بكم ربي لولا دعاؤه إياكم إلى الإسلام وقيل: ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة.

فإن قلت: إلى من يتوجه هذا الخطاب قلت: إلى الناس على الإطلاق ومنهم مؤمنون عابدون ومكذبون عاصون فخطبوا بما وجد في جنسهم من العبادة والتكذيب، وقرئ فقد كذب الكافرون وقيل: يكون العذاب لازماً وعن مجاهد رضي الله عنه هو القتل يوم بدر وأنه لوزم بين القتلى لازماً، وقرئ لازماً بالفتح بمعنى: اللزوم كالثبات والثبوت والوجه أن ترك اسم كان غير منطوق به بعد ما علم أنه مما توعدهم به لأجل الإبهام وتناول ما لا يكتننه الوصف والله أعلم بالصواب. عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة الفرقان لقي الله يوم القيامة وهو مؤمن بأن الساعة آتية لا ريب فيها وأدخل الجنة بغير نصب (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الشعراء مكية

لمتر (١).

﴿طسم﴾ بتفخيم الألف وإمالتها وإظهار النون وإدغامها.

تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّذِينَ (٢).

﴿الكتاب المبين﴾ الظاهر إعجازه وصحة أنه من عند الله والمراد به السورة أو القرآن والمعنى آيات هذا

(2) سورة يوسف، الآية: 4.

(1) ذكره الثعلبي وابن مروي، ونكره الواحدي في التفسير، زيلعي